الاتحاد الاشتراكى العربى
المؤسسة الثقافية العمالية
السلسلة العمالية
(٤٣)

الإدارة فى الإسلام

الدكتـــور
عبد الشافى محمد عبد اللطيف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على خاتم النبيين وبعد .

فى هذا الكتيب محاولة متواضعة لاعطاء القارىء الكريم فكرة مبسطة عن الادارة فى الاسلام ، وبادىء ذى بدء نريد ان نقول أن الذى نهدف اليه من وراء هذا البحث فى تصوير كيف استطاع المسلمون ان يكونوا دولتهم وان ينظموها ويديروها ويضبطوا أجهزتها المختلفة منذ عهد القائد الأعظم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، فالادارة التى سنتحدث عنها فى هذا الكتيب هى ادارة الدولة باجهزتها المختلفة . لأن الادارة بمفهومها الحديث المعقد وتنوع أجهزتها واختصاصاتها هى من مواليد القرون الثلاثة الأخيرة . فالادارة كعلم أو علوم لها قواعدها وأصولها المقررة لم تعرف تقريبا على نطاق واسع فى العالم الا بعد قيام الثورة الصناعية فى أوروبا فى القرن الثامن عشر ، تلك الثورة التى أحدثت تحولا خطيرا وهائلا فى الانتاج الصناعى بل وفى تاريخ العالم كله وعلاقات دوله وشعوبه بعضها بالبعض وكان من الطبيعى أن تؤدى الثورة الصناعية الى قيام الشركات والمؤسسات الصناعية الضخمة التى أصبحت تضم أعدادا هائلة من العاملين سواء فى الانتاج أو توزيع الانتاج وتسويقه وتنوعت بمرور الزمن اختصاصات هذه المؤسسات حتى تغطى كل متطلبات الانسان فى حياته اليومية . وكان من الطبيعى أيضا أن يؤدى هذا الواقع الجديد فى ميدان الانتاج الصناعى الى ضرورة التفكير فى كيفية ادارة هذه المؤسسات العملاقة ، والمشروعات الصناعية الكبيرة ادارة تضمن انتظام العمل

والانتاج وقيام العلاقات بين العاملين فى هذه المؤسسات على قواعد ادارية سليمة ومن هنا بدأت تظهر نواة علوم الادارة الحديثة وقواعدها وبدأت تنشأ المعاهد الادارية وأصبحت علوم الادارة على أعلى درجة من الدقة والشمول وأصبح لها أساتذتها ورجالها المتخصصون فى فروع الادارة المختلفة. كل هذا بدأ منذ قيام الثورة الصناعية فى العصر الحديث .

أما فى العصور الوسطى التى ظهر فيها الاسلام ، والتى نحن بصدد الحديث عن الادارة الاسلامية فيها فلم تكن هناك ثورة صناعية أو مؤسسات صناعية ضخمة كالتى تشاهدها الآن ، وكان الانتاج انتاجا يدويا بسيطا ، ولم يكن هناك جيوش من العمال والموظفين كما نشاهد الآن . ولم يكن هناك معاهد لتعليم الادارة وانما كانت الادارة فى ذلك الوقت تعتبر موهبة شخصية أو هى فن أكثر منها علم . وكان رجال الادارة البارزون يتعلمون الأساليب الادارية من الخبرة العملية فى ميادين العمل المختلفة . وليس معنى هذا أن شأن الادارة كان قليلا بل بالعكس كانت الادارة مهمة جدا لسلامة تسيير الحياة فى مجالاتها المختلفة ، وكان على حسن سير الادارة يتوقف نجاح أى عمل أو أى مشروع كما هو الحال الآن تماما .

والذى يهمنا هنا بالدرجة الأولى أن نعرف كيف أدار المسلمون الأوائل دولتهم العظيمة التى شملت مساحات شاسعة من ثلاث قارات كبرى هى آسيا وأفريقيا وأوروبا . ومن المعروف أن العرب المسلمين خرجوا من شبه الجزيرة العربية عند ظهور الاسلام حاملين رايته الى آفاق بعيدة حتى وصلوا بها الى جنوب أوربا غربا والى حدود الصين شرقا ومن أواسط آسيا شمالا حتى قرب حدود خط الاستواء جنوبا . هؤلاء العرب الذين أصبحوا مسئولين عن ادارة هذا الملك الواسع وهذه الدولة العظيمة خرجوا من

بلادهم بدون خبرة ادارية أو اية تجارب سابقة فى فن حكم الشعوب وادارتها . ولكنهم برغم هذا — والتاريخ خير شاهد على هذا — استطاعوا أن يديروا هذه المناطق الشاسعة وان يحكموا هذه الشعوب المختلفة الاجناس والالوان واللغات بمقدرة فائقة ، وأن يقيموا بينها شريعة الاسلام ، شريعة الحق والخير والعدل والمساواة ، وأن ينشروا الأمن والسلام فى هذه المناطق الواسعة . وهذا هو الذى كان ولا يزال مثار دهشة للمؤرخين ، وكيف استطاع هؤلاء العرب البدو أن يكونوا رجال سياسة وادارة من طراز نادر ، وأن يكونوا قادة حروب فى الوقت الذى كانوا فيه حملة رسالة انسانية خالدة ، وحملة حضارة مشرقة عم نورها أرجاء العالم كله .

وفى رأينا أنه لا وجه للدهشة أو الاستغراب ، فالعرب كانوا فعلا قبل ظهور الاسلام قليلى خبرة فى السياسة والادارة ولكن الاسلام خلقهم خلقا آخر واعطاهم الفرصة ليكتشفوا انفسهم وكشف عن عبقريتهم الفذة فى الادارة والسياسة والحضارة وفنون الحرب والقتال والسلام وفى كل ميدان من ميادين الحياة . فالاسلام دين عالمى ورسالة خالدة تسع البشر جميعا . وقد اختار الله الأمة العربية لحمل هذه الرسالة والزود عنها وتبليغها للعالمين . والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بأن العرب أهل لحمل هذه الرسالة والنهوض بتبعاتها . وقد تحقق علم الله فى العرب وكانوا اهلا لحمل هذه الرسالة ونهضوا بها وأدوا واجبهم نحو ربهم ونحو بنى جنسهم جميعا على خير وجه وكانوا فعلا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله — عندما كانت تطبق تعاليم الاسلام فى كل شؤون حياتها .

وكما أثبت التاريخ أن العرب عند ظهور الاسلام كانوا على شيء قليل من الخبرة الادارية والسياسية ، فقد أثبت كذلك أنهم كانوا على استعداد للتعليم والاستزادة من المعرفة

وساعدهم على ذلك ذكاء فطرى وقدرت خارقة كانت كامنة فى نفوسهم كشف عنها الدين الحنيف . فقد أقبل العرب على الحياة بعقول وقلوب مفتوحة واستفادوا من خبرات الشعوب التى فتحوها وأصبحت تحت حكمهم فى ميادين الادارة والسياسة والحضارة وفى كل شأن من شؤون الحياة. والاسلام نفسه يحث العرب على العلم والتعلم من الغير وكانت مبادىء الاسلام السمحة فى العدل والمساواة والأخوة الانسانية خير عون للعرب على مهمتهم وحببتهم الى الشعوب المفتوحة أخلاقهم وجعلت هذه الشعوب تقدم لهم خدماتها وخبراتها عن رضا وطيب خاطر ، وهكذا استفاد العرب فوائد جليلة من هذه الشعوب وتعلموا منها الكثير . واحتفظوا بالموظفين والاداريين القدماء الذين كانوا يتولون ادارة هذه الشعوب قبل أن يفتحها المسلمون وعهدوا اليهم بالكثير من الأعمال الخطيرة حتى من احتفظ بدينه القديم لم يكن الباب أمامه مغلقا ليشارك فى ادارة الدولة الاسلامية لأن الاسلام ليس دينا مغلقا بل يعطى الفرصة لكل انسان ليقوم بواجبه فى ادارة الدولة بشرط أن ينفذ تعاليم الاسلام .

وسترى فى خلال هذا البحث العديد من الحالات التى تولى فيها أناس غير مسلمين أعمالا ادارية وسياسية ذات شأن كبير فى الدولة الاسلامية .

وقد دأب العرب منذ عهد النبى ـ ص ـ على تطوير دولتهم وانشاء الكثير من الأجهزة والمرافق الادارية اللازمة كلما تطلبت الظروف ذلك .

وعلى كل حال فموضوع الادارة فى الاسلام موضوع ضخم جدا وليس من اليسير تغطيته كله فى هذه الصفحات القليلة . وحسبنا أن نعطى للقارىء الكريم صورة عن التفكير الادارى الاسلامى وعن أسلوب المسلمين فى تكوين دولتهم

الفتية وتطويرها وادارتها ، وبراعتهم فى فن حكم الشعوب بما يحقق أهداف الاسلام العليا فى العدل والمساواة .

وسيرى القارىء من خلال هـذا البحث أن سر نجاح العرب فى الادارة يكمن فى أنهم لم يكتفوا بوضع المبادىء الادارية أو التغنى بالشعارات وانما فى تطبيق هذه المبادىء فى واقع الحياة تطبيقا سليما وفى غاية الحسم والحزم والصرامة .

فعلى سبيل المثال وضع المسلمون مبدأ ــ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ــ وطبقوه فعلا تطبيقا يصل الى حد الكمال ، ولك أن تقول مثل هذا عن مبدأ تكافؤ الفرص بين الناس جميعا فى تولى المناصب والوظائف دون تفرقة على أساس من اللون أو الجنس أو اللغه الخ وعن مبدأ سياسة الباب المفتوح فى ادارة شؤون الناس ومصالحهم . ولم يكتف التفكير الادارى الاسلامى بتطبيق المبادىء فى واقع الحياة بل صان ذلك كله بجهاز مراقبة ومتابعة على أعلى درجة من الدقة والأمانة والنزاهة واليقظة ليضمن سلامة تطبيق المبادىء ، ويضمن عدم الانحراف عن روح الاسلام وأهدافه العليا . كل هذا وغيره سوف يطالع القارىء الكريم فى هذا الكتيب وانا على يقين أن القارىء سوف يدرك سر نجاح المسلمين فى الادارة ويعرف التفسير السليم لنجاحهم فى حكم هـذه الشعوب الكثيرة المتحضرة التى دخلت تحت حكمهم والتى كانت على درجة عالية من الحضارة والنظام الادارى مثل مصر والعراق والشام وفارس وأسبانيا وغيرها .

ولعل بعض الناس يقول أن هذه الأساليب الادارية التى اتبعها المسلمون فى ادارة دولتهم فى العصور الوسطى لا تصلح أساسا للادارة فى هذا العصر الحديث المعقد الذى ازدادت فيه مشاكل الادارة بصورة كبيرة . ولكننا نقول لهؤلاء أن المبادىء لا يمكن أن تتغير ولكن قد تتغير الأساليب وتظل المبادىء ثابتة .

فمثلا من يستطيع أن يدعى أن مبدأ ــ وضـــع الرجل المناسب فى المكان المناسب لا يصلح اساسا من اسس الادارة الناجحة فى اى عصر من العصور ، بل ان هذا المبدأ وتطبيقه السليم يعتبر حلما من أحلام رجال الادارة ولكنهم يعــرفون خطره وشأنه ويعجزون عن تطبيقه ، مع أن الانحــراف عن تطبيقه التطبيق السليم يعتبر أخطر الأمراض التى تهـــدد الادارة وتؤدى الى الفســـاد الادارى فى اى مجتمـــع من المجتمعات .

وبعد فاذا كنت قد وفقت فى عرض صـــورة مبسطة للتفكير الادارى الاسلامى ولبعض المبادىء الادارية التى أرسى دعائمها المسلمون الأوائل وأعطيت القارىء الكريم فكرة عنها فهذا التوفيق من الله تعالى الذى ندعوه أن يوفق ولاة أمور المسلمين للعمل بكتاب الله وهدى سنة رسول الله عليه الصلاة والســلام .

دكتـــور
عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الإسلام دينٌ ودَولة

الموضوع الذى نحن بصدد الحديث عنه هو ــ الادارة فى الاسلام ــ وقبل أن نتحدث عن الادارة فى الاسلام ينبغى أن نتحدث عن فكرة الدولة فى الاسلام ، لأنه اما أن يكون الاسلام دولة الى جانب كونه دينا وفى هــذه الحالة نستطيع أن نتحدث عن الادارة وأسلوبها واتجاهاتها فى الدولة الاسلامية، واما ألا يكون هناك دولة وفى هذه الحالة لا يكون هناك مجال للحديث عن الادارة فى الاسلام أصلا ، لأن معنى الحديث عن الادارة فى الاسلام أن يكون للاسلام دولة ومجتمع تطبق فيه أساليب اسلامية فى الادارة .

وفى الحقيقة كون الاسلام دينا ودولة يعتبر من البديهيات التى يدركها كل ناظر فى تاريخ الاسلام ، فالاسلام لم يكن كغيره من الديانات الأخرى مقصورا على تحديد وتوضيح العلاقة بين الله تعالى والانسان ، وما تتضمنه هذه العلاقة من اخلاص عبودية الانسان لخالقه سبحانه وتعالى وافراده بالوحدانية ، وعبادته طبقا للقواعد والمبادىء التى تحددها كل ديانة لأتباعها . ولكن الاسلام تضمن ذلك كله وتعداه الى تحديد العلاقة بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والمجتمع وبين الحاكم والمحكوم ، وتضمن الاسلام نظريات اقتصادية خاصة به وآدابا اجتماعية ومبادىء تربوية بالاضافة الى نظام للأسرة من أدق ما عرفت البشرية فى تاريخها الطويل .

وباختصار فالاسلام عقيدة تنبثق منها شريعة يقوم على هذه الشريعة نظام اجتماعى متكامل ، هدفه سعادة الانسان فى حياته الدنيا وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ــ فالاسلام

يختلف مثلا عن الديانة المسيحية من حيث كونه دينا ودولة ، فالمسيحية كانت دينا فقط . أى مجال عملها العلاقة بين الله تعالى وبين الانسان ، ولم يكن لها فى شئون الحياة تشريع او نشاط ، او بعبارة أخرى أكثر دقة لم يكن للمسيحية نظرية عن قيام دولة مسيحية كما كان للاسلام نظرية عن قيام دولة اسلامية قامت بالفعل واستمرت ولا يزال لها استمرار فى كثير من البلدان الاسلامية — ولعل ذلك الفرق بين المسيحية والاسلام فى هذه الناحية راجع الى طبيعة الدعوة المسيحية وأهدافها ، كما يمكن أن يرجع الى النشأة التاريخية لهذه الدعوة ، فالدعوة المسيحية جاءت لتصحيح الديانة اليهودية التى انحرف بها اليهود عن مسيرها الصحيح وبدلوا الكلام عن مواضعه واحالوه الى طقوس جامدة ومظاهر خاوية لا حياة ولا روح فيها ، ولقد عبر المسيح نفسه عليه السلام عن هذا بقوله : « جئت لأهدى خراف بنى اسرائيل الضالة » فهدف المسيحية اذن هو التهذيب الروحى والتطهر الوجدانى ، وقد عنيت المسيحية بهذا الجانب كما عنيت بنقد الطقوس الجامدة فى الشريعة اليهودية وبعث الروح فيها من جديد ، ومع أن اليهود قاوموا دعوة السيد المسيح التصحيحية هذه أشد المقاومة ، وتطرفوا فى عدائهم له حتى وصلوا الى درجة التآمر على حياته وصلبه ، الا أن المسيحية استطاعت على يد السيد المسيح وتلامذته المخلصين أن تصل — فى فترتها الأولى — الى مستوى رفيع من التطهر الوجدانى والسماحة والبر والرحمة ونجحت فى تحقيق كل ذلك وبلغت ما يمكن لأية تعاليم روحية مجردة عن التشريع أن تبلغ من الصفاء والسمو الخلقى ، هذا باختصار هو هدف المسيحية وتلك طبيعة نشأتها .

أما السبب الآخر الذى جعل المسيحية تختلف عن الاسلام فيما يتعلق بنظام الدولة ، أو هو السبب الذى من أجله لم يكن فى مقدور المسيحية أن تنشىء دولة فهو النشأة التاريخية للدعوة المسيحية على يد السيد المسيح عليه السلام ، فالمسيح كما هو معروف ولد على أرض فلسطين، وقام بدعوته فى فلسطين ، وفلسطين يومئذ ولاية رومانية ، يعنى مستعمرة رومانية يحكمها حاكم رومانى باسم الامبراطور الروماني والامبراطورية الرومانية ـ كما هو معروف ـ مشهورة بقوانينها التى لا تزال تعتبر مصدرا ومرجعا لمعظم القوانين فى الدول الأوربية الحديثة ، وكان كذلك لهذه الامبراطورية الرومانية العفيدة نظمها الوضعية، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى نمت واستقرت عبر قرون طويلة ، وفى ظل هذه الامبراطورية ذات التقاليد القانونية الراسخة وذات النظم المستقرة الثابتة نشأت المسيحية فى فلسطين التى هى جزء من أجزاء هذه الامبراطورية المترامية الأطراف ، فلم تكن المسيحية اذن بقادرة على أن تغير القوانين الرومانية الراسخة وتضع مكانها تشريعا مسيحيا ، ولا كانت المسيحية قادرة على تبديل الأوضاع والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة فى الامبراطورية ، ولا كانت الامبراطورية الرومانية ـ التى قاومت المسيحية فى البداية مقاومة شرسة ـ على استعداد لقبول شىء من هذا القبيل ، والواقع أن المسيحية نفسها كانت مدركة لحقيقة أهدافها وطبيعة نشأتها فلم تحاول شيئا من هذا أو قصرت مجال عملها على حياة الانسان الروحية ، وتجنب الخوض فى شئون الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وانحدر الينا عبر الأجيال القول الذى نسب الى السيد المسيح عديه السلام وهو : « دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر » .

أما بالنسبة للاسلام فالوضع مختلف تماما . فعند ظهور الاسلام لم تكن هناك ديانة سماوية سائدة فى جزيرة العرب جاء الاسلام لاصلاحها وتهذيبها ، وانما كانت هنــاك وثنية عربية ضاربة أطنابها فى بلاد العرب جاء الاسلام ليهـدمها ، وتقويض أركانها تماما ، وجاء الاسلام لارساء قواعد عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى ،والايمان به كخالق واحد لهذا الكون كله . فالاسلام اذن ــ من حيث طبيعة نشأته ــ دعوة جذرية جاءت لهدم الوثنية العربية وبناء عقيدة التوحيــد الخالص لله تعالى .

اما من حيث النشأة التاريخية للاسلام ، فالاسلام ظهر فى شبه الجزيرة العربية وهى بلاد كانت مستقلة اســتقلالا كاملا ، فلم تطأ أرضها قدم أجنبى ولم يدنسها اســتعمار من اى نوع ، ولم ترتبط باى رباط من التبعية لاى من الدول الكبيرة التى كانت قائمة فى ذلك الوقت . وباختصار فهى بلاد لا سلطان عليها لاحد ، كما ان المجتمع الذى ظهر فيه الاسلام ، وهو المجتمع العربى كان مجتمعا بدويا قبليا ، فليست فيــه قوانين كالتى كانت سائدة فى الامبراطورية الرومانية ، التى ظهرت المسيحية فى جزء منها وهو فلسطين . كما أن المجتمع العربى وقتئــذ لم يكن فيه أى نوع من أنواع النظم السياسية والاقتصادية كتلك التى كانت معروفة فى المجتمعات المنظمة الأخرى فى ذلك الوقت . وكان هذا الوضع وهو اســتقلال العــرب عن أى نفوذ خارجى وخلــو بلادهم من القوانــين والتشريعات الاقتصادية والنظم السياسية هو أنسب وضع للاســلام ليعمل فى حرية بعيــدا عن تدخل الآخرين وليبنى المجتمع الذى يريده بالطريقة التى شرعها الله سبحانه وتعالى .. فكان على الاسلام أن يرعى ضمير الانسان وروحه، وأن يراقب

سلوكه ومعاملاته ، وأن يجمع بين الدين والدنيا فى تشريعاته وتوجيهاته ، ولم يكن الاسلام مضطرا كالمسيحية أن ينعزل فى وجدان الانسان وضميره بعيدا عن واقع الحياة العملية ..

وباختصار فالاسلام كان دعوة جاء أوانها لتقوم على الأرض شريعة سماوية تعالج شئون الحياة على أساس من الأخـوة الانسانية الحقيقية والمساواة والعدل والرحمة لم تعرفهـا البشرية من قبل .. ولقد نجح الاسلام نجاحا باهرا فى تحقيق أهدافه كاملة وأنشأ المجتمع الفاضل وقدم للبشرية نمـوذجا صالحا للحكم الصالح عندما كانت شريعـة الله تحـكم بين النـاس .

فالاسلام اذن دين ودولة وعقيدة وشريعة ، وذلك وضح منذ أيام الاسلام الأولى .. فمحمد عليه الصلاة والسـلام هو رسول رب العالمين الى الناس كافة يبلغهم الوحى عن ربه طبقا لقول الله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين » الآية ٦٧ — سورة المائدة . وهو فى نفس الوقت رئيس دولة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، يحكم الناس ويحكم بينهم طبقا لشريعة الله ، شريعة العـدل والمساواة ، وطبقا لقول الله تعالى : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين النـاس بما اراد الله ولا تكن للخائنـين خصيما » الآية ١٠٥ من سورة النساء . ولا يكون مؤمنا حقا من لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام نبيا ورسولا أو لم يرض به حاكما وزعيما لهذه الأمة ، والقرآن الكريم يعبر عن هذا فى وضوح لا لبس فيه بقول الله تعـالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجـدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . الآية ٦٨ من سورة النساء .

ورسول الله هو الحاكم الواجب الطاعة على الأمة ، وهو المرجع فى كل خلاف أو نزاع يقع بين هذه الأمة ، يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » الآية ٥٩ من سورة النساء . فالرسول عليه الصلاة والسلام وظيفتان ، فهو رسول يبلغ وحى ربه الى الناس ، وهو رئيس دولة يحكمها طبقا للشريعة التى جاء بها الوحى من الله .

وقد مارس الرسول عليه الصلاة والسلام مهمته كرئيس دولة ممارسة واقعية ، فكان القائد الأعلى لجيوش الأمة .. والقاضى بين الناس عند التخاصم ، والمسئول عن تدبير شئون الأمة الادارية وتعيين العمال والموظفين على الأقاليم ، ورسم سياسة الأمة الداخلية والخارجية وصد أى عدوان على حقوق الامة وأرضها مهما كان مصدره . وقد نهض النبى صلى الله عليه وسلم بهاتين الوظيفتين وأداهما بأمانة تليق به عليه الصلاة والسلام ، وجاز الى الرفيق الأعلى مرضيا عنه من ربه . حائزا كل الحمد والثناء والشكر والوفاء من الأمة وبوفاة النبى صلى الله عليه وسلم انتهت مهمته الأولى كرسول يبلغ الوحى فقد انقطع الوحى وتمت الرسالة . وأصبح مكانه كرئيس دولة شاغرا وكان لابد من شخص يخلف النبى صلى الله عليه وسلم فى منصبه الدنيوى يدير شئون الأمة ويرعى مصالحها . ولقد فهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مبادىء الاسلام وأهدافه فهما صحيحا ، فهموا أن الاسلام دين عالمى يسع البشرية كلها ، وفهموا ان الاسلام شريعة سماوية صالحة لكل زمان ومكان . وفهموا دعوة الاسلام الى قيام مجتمع اسلامى وكيان اسلامى يحكم طبقا لشريعة الاسلام ومبادئه الخالدة ، وفهموا أن الله سبحانه وتعالى قد اسطفاهم للقيام بمهمة قيادة البشرية على طريق الحق

والعدل والخير والبر والرحمة . وقد نهضوا هم بدورهم بمهمتهم وادوها خير اداء .

وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلو منصبه الدنيوى فى زعامة الامة كما اشرنا آنفا ادرك الصحابة رضوان الله عليهم أن لابد من زعيم يختارونه من بينهم ليقوم بمهمة الزعامة الدنيوية ورئاسة الدولة الاسلامية ، وبلغ حرصهم على شغل مكان النبى صلى الله عليه وسلم فى زعامة الأمة أن أعطوها الأولوية عن كل شىء سواها حتى على دفن جسد النبى الطاهر فقبل أن يوارى جسد النبى عليه الصلاة والسلام التراب كانت مشكلة خلافة النبى صلى الله عليه وسلم فى قيادة الأمة الاسلامية قد حسمت بطريقة اسلامية خالصة ، وهى اختيار افضل الرجال الموجودين لهذا المنصب الخطير . فقد بويع أبو بكر الصديق رضى الله عنه خليفة للرسول عليه الصلاة والسلام ، ليقود الامة الاسلامية ويراس الدولة على اساس الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبهذا قامت الدولة الاسلامية بشكل عملى واقعى ، ومن الجدير بالذكر ان نظام الحكم الاسلامى قام على قاعدة أصيلة هى الشورى التى تعتبر جوهر النظام الاسلامى كله . وقد نص القرآن الكريم الذى هو دستور نظام الحكم الاسلامى صراحة على الشورى فى موضعين . الأول جاء فى صورة توجيه من الله تعالى لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام وتعليم وتدريب له على قيادة الأمة ، وتلقين لفن الحكم والادارة والبعد عن فرض الرأى بالقوة والسيطرة . فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « فبرحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

والموضع الثانى الذى جاء فيه ذكر الشورى هى السورة التى سميت باسم سورة الشورى وجاء فى معرض الثناء على عباد الله المؤمنين وتزكيتهم من ربهم علامة على رضاه سبحانه وتعالى بسلوكهم فى حياتهم الخاصة وعلاقتهم فى حياتهم العامة وتطبيقهم لمبدأ الشورى فى كل أمورهم . فقد قال تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » الآية ٣٨ من سورة الشورى .

وقد يحلو لبعض الباحثين فى نظم الحكم — وخاصة من المسلمين — أن يقارنوا بين الشورى الاسلامية وبين الديمقراطية ، وقد يستخلصون أن كلمة الشورى هى المرادف العربى لكلمة الديمقراطية اليونانية الأصل . ولعلهم يريدون أن يقولوا أن الاسلام نادى بالديمقراطية قبل كثير من النظم الحديثة ، ولعلهم بذلك يقصدون الدفاع عن الاسلام واظهاره بمظهر عصرى . وهم طبعا بحسن نية يدعون أنهم يخدمون الاسلام . . ولكنى أرى أن الشورى التى هى مبدأ اسلامى أصيل وركن أساسى من أركان نظام حكمه نظلمها ان قارناها بالديمقراطية التى تدعيها الدول الحديثة بسبب بسيط وهو أن مبدأ الشورى فى الاسلام طبق تطبيقا سليما وعمليا من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وحتى فى أوقات متفرقة بعد عصر الخلفاء الراشدين . أما كلمة الديمقراطية فلم تعرف أنها طبقت مرة واحدة تطبيقا سليما منذ أن اخترع الاغريق هذه الكلمة وحتى الآن ، وأكاد لا أكون مبالغا اذا قلت أنه ليس هناك كلمة فى التاريخ وقع عليها من الظلم وسوء الاستخدام ما وقع على كلمة الديمقراطية . والدليل على صحة ما نقول أن الدول التى تقوم على نظم متناقضة كل منها تدعى أنها دول ديمقراطية فالبلاد الشيوعية تدعى أنها بلاد تقوم على نظام ديمقراطى ، بل

تحرص كل الدول الشيوعية على اقحام كلمة الديمقراطية فى التعريف بنفسها ، وسرت هذه العدوى الى كثير من البلاد الغير شيوعية وأصبحنا نسمع كثيرا عن جمهورية كذا الشعبية . كما أن البلاد الرأسمالية بدورها تدعى أنها أم الديمقراطية وحاميتها . فمن تصدق من هذه الدول ؟ هل تصدق الدول الشيوعية أو الرأسمالية ، أو لست معى أن هذا دليلا على ظلم الكلمة وسوء استخدامها .

أما مبدأ الشورى فى الاسلام فقد طبق فى واقع الحياة تطبيقا عمليا سليما ، والتزم به النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من النبى صلى الله عليه وسلم — كما يروى أبو هريرة رضى الله عنه ، فقد كان عليه السلام يشاور أصحابه فى كل الأمور حتى فى الأمور العسكرية التى تتطلب سرعة الحسم والتنفيذ ، فقد شاور النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى غزوة بدر وشاورهم فى مصير أسرى هذه المعركة .

وأصبحت الشورى منهجا اسلاميا لا يحيد عنه الا منحرف عن منهج الاسلام فى الحكم . ويوم أن انحرفت الأمةالاسلامية عن مبدأ الشورى فى نظمها وحياتها كان هو اليوم الذى بدأت فيه تتقهقر عن مركز الصدارة فى العالم .

لأن مبدأ الشورى هو العاصم من الاستبداد والانفراد بالرأى وحكم الفرد ولهذا كان الحرص عليه والتأكيد على تطبيقه هو جوهر النظام الاسلامى . وكون الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم من الخطأ والمؤيد بالوحى يحرص على الشورى ويطبقها وأكثر من ذلك ويؤمر بها ويأمر بها ويلتزم بها ويلزم أصحابه بها يعتبر أكبر دليل على محاربة الاسلام للاستبداد وحرصه على احترام وجهة النظر الأخرى وتأكيد حق الأمة فى المشاركة فى شئونها بابداء الرأى والمشورة فى تصريف شئونها .

على كل حال لسنا الآن بصدد الكلام عن نظام الحكم في الاسلام ، ولكن قصدنا فقط من وراء هذه الصفحات السابقة أن نبين أن الاسلام دين ودولة وأن دولة الاسلام يجب أن تحكم طبقا لدستور الاسلام ، وحين كانت الدولة الاسلامية تحكم طبقا لدستور الاسلام ومبادئه كانت هي الدولة الأولى في العلم ولها الصدارة والزعامة على العالم المعروف في العصور الوسطى ، وكانت كلمتها نافذة من أسبانيا وجنوب فرنسا في أوربا حتى حدود الصين ، وحكمت الشعوب التي كانت تعيش في هذه الرقعة الفسيحة من الأرض على اختلاف اجناسها والوانها ولغاتها حكمت حكما اسلاميا يقوم على العدل المطلق والمساواة والأخوة الانسانية وعلى أساس القاعدة الاسلامية الأصيلة قاعدة أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى والعمل الصالح .

ولكن كيف استطاع العرب المسلمون الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية يحملون راية الاسلام ، دون سابق خبرة أو تجربة بفن حكم وادارة الشعوب وسياستها كيف استطاعوا أن يحكموا هذه الشعوب الكثيرة وأن يديروا هذه المناطق الفسيحة ادارة سليمة وأن يحققوا التوازن والعدل بصورة لم يسبق لها مثيل بين هذه الشعوب .. هذا ما سنحاول أن نعطي فكرة عنه ولو موجزة خلال هذا البحث وبالله التوفيق .

المسلمون يستفيدون من التجارب الادارية للشعوب الأخرى

الأساس الذى يقوم عليه نظام الحكم فى الاسلام ، وكذلك نظام الاقتصاد فى الاسلام يختلف عن أى أساس آخر يقوم عليه أى نظام سياسى أو اقتصادى غير اسلامى . فالاسلام يقدم للانسانية نموذجا من النظام السياسى والاقتصادى المتكامل الذى لم تعرفه البشرية من قبل ، والنظام الاسلامى نظام مستقل بذاته ومقوماته عن النظم الأخرى ولم يحاول أن يقلد أى نظام آخر أو يعقد بينه وبين أية صلة أو مشابهة لا فى السياسة ولا فى الاقتصاد . خذ لذلك مثلا بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم التى تعتبر أول تجربة سياسية تخوضها الأمة الاسلامية بعد وفاة قائدها الأعظم عليه الصلاة والسلام ، فانك اذا تأملت هذه التجربة جيدا تجد أن بيعة أبى بكر تمت بطريقة اسلامية خالصة ، وبأسلوب ابتدعه المسلمون مسترشدين بروح دينهم وتعاليمه ، ولم يحاولوا تقليد أى نظام آخر أو ينقلوا صورة من تولية الملوك فى الدول المعاصرة ليطبقوها فى تولية رئيس الدولة الاسلامية .

ولم يشهد أحد من المسلمين الذين حضروا مؤتمر السقيفة الذى تمت فيه بيعة أبى بكر بنظام آخر أو تجربة أخرى فى تقرير تقليد سياسى اسلامى وهو اختيار من يخلف النبى صلى الله عليه وسلم فى قيادة الأمة الاسلامية ، وانما كان الحوار والنقاش الذى دار بين المسلمين فى مؤتمر السقيفة كان يجرى ويدور فى جو اسلامى صرف حتى انتهوا الى وضع

قاعدة سياسية اسلامية وهى اختيار أفضل المسلمين ليكون قائدا ورئيسا وزعيما اختيارا حرا دون اكراه ولا اجبار . واكن لسوء الحظ لم يستمر هذا التقليد السياسى الاسلامى الذى ثبت نجاحه أكثر من مرة فى عهد الخلفاء الراشدين بل تحول الى نظام ملكي يقوم على الوراثة منذ أن استطاع بقوانينه الاستيلاء على أزمة الحكم فى الدولة الاسلامية ، ولم يكن هذا التحول يرجع الى عيب فى أساس القاعدة السياسية الاسلامية وهى قاعدة اختيار رئيس الدولة بطريق البيعة الحرة ، وانما يمكن ارجاع هذا التحول الى عوامل كثيرة من أبرزها اصرار بنى أمية على الاستئثار بالسلطة والسلطان فى الدولة الاسلامية ، ونظام البيعة لا يحقق لهم هذا وانما يحققه لهم أن يحولوا النظام الاسلامى الى نظام ملكى وراثى ، الأمر الذى جعل نظام الحكم فى الدولة الاسلامية يبتعد عن روح الاسلام ومبادئه شيئا فشيئا حتى صار الأمر الى أن تخللت الدولة الاسلامية الكبرى وقد تدهورت أحوال المسلمين ، وعلى كل حال هذا موضوع آخر لا يهمنا أن نخوض فيه الآن . ولكن ذكرنا ما ذكرناه آنفا لنؤكد استقلالية الاسلام وهو يضع القواعد الأساسية فيما يتعلق بنظامه السياسى واختيار رئيس الدولة الاسلامية .

وما يقال عن استقلال الاسلام فى مجال النظريات السياسية يمكن أن يقال مثله تماما عن استقلال فى مجال النظريات الاقتصادية . فللاسلام فلسفة اقتصادية خاصة به ، لا نجد لها نظيرا فى أى نظام آخر من نظم العالم الاقتصادية لا قديما ولا حديثا ، وانحراف المسلمين عن النظام السياسى والاقتصادى الذى شرعه الاسلام هو الذى جعلهم يتراجعون عن مركز الصدارة والقيادة فى العالم ، بعد أن كانوا محط الأنظار يمثلون مكانة عالمية مرموقة خلال قرون كثيرة ، بل حولهم الى مركز التبعية يعتبرهم يتخبطون فى نقل النظريات

السياسية والاقتصادية من الشرق مرة ومن الغرب مرة دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى رصيدهم وتراثهم السياسى والاقتصادى ولو فعلوا لوجدوا أنهم أصحاب تراث ضخم نافع ومفيد وصالح للتطبيق فى هذا العصر والزاخر بالتيارات والنظريات والمذاهب ولكنها آفة التقليد التى أصابت المسلمين وعقدة الخواجة التى لا زلنا غير قادرين على التخلص منها نهائيا ولكن يبدو أن رياح التغيير بدأت تهب على العالم الاسلامى ونرى مع بعث اسلامى جديد لو استمر وتطور فقد يشهد العالم مره أخرى دولة اسلامية جبارة وقيام مجتمع اسلامى مثالى كما حدث فى الماضى وليس ذلك على الله ببعيد . ولا يفوتنا هنا أن ننبه الى المحاولات التى يقوم بها بعض الذين يكتبون عن النظم الاسلامية وعلاقاتها بالنظم الأخرى ، فبعض هؤلاء يحاول أن يعقد صلات ومقارنات بين الاسلام وبين غيره من النظم الأخرى .

ورأينا كثيرا من الكتب التى تتحدث عن اشتراكية الاسلام أو ديمقراطية الاسلام ، وأغلب الظن أن أصحاب هذه المحاولات يريدون أن يدافعوا عن الاسلام والباسه ثوبا عصريا ويريدون أن يقولوا ان الاسلام يجارى النظم الأخرى فى السياسة والاقتصاد ، ولا يجدون الجرأة ليقولوا ان النظام الاسلامى نظام مستقل له ذاتيته الخاصة ومقوماته الخاصة ، ونحن لا نفكر أن النظام الاسلامى قد يلتقى مع غيره من النظم سواء فى السياسة أو فى الاقتصاد فى بعض الجزئيات وقد يفترق ، ولكن هذا الالتقاء وذاك الافتراق بين الاسلام وغيره من النظم الأخرى شىء عرضى غير ذاتى ، ويبقى الاسلام قبل كل شىء وبعد كل نظام مستقل له خصائصه الذاتية الأصيلة التى تميزه عن النظم الأخرى . وكون الاسلام نظاما مستقلا لا علاقة له بالنظم الأخرى ، ليس انهاء ما للنظم الأخرى أو الحكم لها أو عليها بالصلاح أو بالفساد ، ولكن الهدف من هذا

التأكيد على استقلالية الاسلام ، لأن الأساس الذى يقوم عليه النظام الاسلامى يختلف عن الأسس التى تقوم عليها النظم الأخرى ، فالنظام الاسلامى يقوم على أساس ان المشرع هو الله وحده سبحانه وتعالى ، ومهمة المسلمين حاكمين ومحكومين هى تنفيذ شريعة الله بين خلقه وتطبيقها لروح الاسلام وأهدافها العليا فى الحياة . أما النظم الأخرى فتقوم على أسس مختلفة ؛ فهى تقوم على أساس ان الأنسان هو الذى يشرع للانسان ، وفرق بين تشريع الله وتشريع الانسان ، فهما اذن أساسان مختلفان ومحال أن يلتقيا .

ويبدو لى أن الذين يحاولون عقد العلاقات والمقارنات بين الاسلام وغيره من النظم الحديثة يحاولون ذلك وهم مدفعون بالاعجاب الشديد باالنجاح ألذى حققته بعض النظم الحديثة فى مجال السياسة والاقتصاد ، بينما هم يرون أن العالم الاسلامى لايزال متأخرا عن ركب البشرية المتقدم ، وكأنهم يريدون أن ينصحوا الشعوب الاسلامية بالأخذ بالنظم السياسية والاقتصادية التى تأخذ بها بعض الشعوب غير الاسلامية مادام قد ثبت نجاح هذه النظم . وكان الأولى بهؤلاء الكتاب والباحثين أن يبحثوا بحثا جادا عن الأسباب الحقيقية التى جعلت المسلمين يتقهقرون عن موقع الصدارة فى العالم ، وهل هذه الاسباب فى مجملها ترجع الى عيوب فى المسلمين أنفسهم ، ومحاولة تقليد غيرهم تقليد أعمى ، واستيراد النظريات والنظم من مجتمعات أجنبية غريبة لها ظروفها الخاصة وتكوينها الخاص ، وما يصلح لها ليس بالضرورة يصلح لنا ، والأولى بنا قبل أن نستورد النظريات من الخارج أن نراجع تاريخنا وثرائنا لعلنا نجد فيه ما يصلح لعلاج مشاكلنا وعللنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

على كل حال وليس هذا البحث مخصصا للحديث عن النظام السياسى والاقتصادى فى الاسلام ، وانما هو للحديث عن الادارة فى الاسلام ، ولكن الصعوبة فى دراسة الاسلام أن الانسان لا يستطيع أن يتناول ناحية واحدة منه دون ان يتطرف الى بقية النواحى . فالاسلام كل لا يتجزأ ومن العسير فصل السياسة عن الادارة عن الاقتصاد الخ وكان قصدنا من السطور السابقة أن نؤكد المرة بعد الأخرى على استقلالية الاسلام ، وأنه نظام يقوم على شريعة الله ، شريعة الحق والعدل والخير لكل البشر .

ولكن الاستقلالية فى الاسلام أساس النظريات والقواعد الكلية فسواء ما فى السياسة أو فى الاقتصاد لا يعنى أبدا الجمود ، فالاسلام لا يعرف الجمود ، ولا يغلق الأبواب فى وجه الاستفادة من تجارب الآخرين ، ولكن علينا أن نفهم جيدا الفرق بين الاستفادة من التجارب وبين النقل والتقليد الأعمى ، فهو فرق كبير وخطير .

ففى مجال الادارة مثلا نجد أن الاسلام يرحب بكل من يقدم له خبرته وتجاربه فى هذا المجال ، لأن المشاكل الادارية ، وتسيير الأمور اليومية فى المجتمع شىء يخضع للتجربة والخطأ ، كما أنها متطورة باستمرار ، وباب الاجتهاد فيها مفتوح دائما ، والادارة ليس لها من هدف سوى خدمة الانسان وتسهيل حصوله على مطالبه المشروعة والعمل على حل مشاكله باستمرار .

والمعروف أن العرب الذين حملوا راية الاسلام ، وأنطلقوا به ينشرونه بين العالمين ، والذين أصبحوا قادة الدولة الاسلامية فى المجالات السياسية والادارية وهم عرب شبه الجزيرة العربية — وبصفة خاصة عرب الحجاز — هؤلاء العرب لم يكن لهم دراية سابقة بادارة الدول ونظمها المعقدة ، فوسط شبه الجزيرة العربية حيث ظهر الاسلام

فى اقليم الحجاز لم يعرف أى شكل من أشكال الحكومات ونظمها المعقدة لأن حياتهم كانت تقوم على أســاس النظام القبلى .

هؤلاء العرب غير الاسلام نظام حياتهم كلها ،وصنع منهم شيئا آخر ، وفجـأة وجـــدوا أنفسهم وقد ألقت المقادير على كواهلهم حمل مسئوليات جسام ، ليس اصعبها الفتح والغزو ونشر الاسلام ، وانما الأصعب من ذلك هو تثبيت الفتح والاحتفاظ بالبلاد المفتوحة عربية اسلاميــة وبسط سلطان الله على الأرض . واذا كان الفتح والغــزو يحتاج الى القوة فان تثبيت الفتح لا تنفع فيه القوة ، وانما ينفــع تثبيت الفتح وفى أن تظل راية الاسلام عالية خفاقة على الشعوب المفتوحة ، ينفع فى ذلك كله الحكم بالعــدل والحق واشاعة الرحمة والتسامح بين الشعوب المفتوحــة وسياسة هذه الشعوب طبقا لمبادىء الاســـلام ، وادارة شؤونها ادارة سليمة ، يتوخى فيها الحاكم المسلم تنفيذ شريعة الله على الأبيض والأسود ، العربى وغير العــربى دون تفرقة بين انسان وانسان ، فالناس جميعا فى شريعــة الاسلام سواء ، أفضلهم عند الله أتقاهم واصلحهم عملا .

وكثير من الباحثين فى شـــئون الاســـلام ــ وبصــفة خاصة الأوربيين منهم ــ لا يزالون مندهشين أمام هــذه الحقيقة ، وهى كيف استطاع العــرب الذين لا دراية لهم بعلوم السياسة والادارة ، كيف استطاع هؤلاء العرب أن يحكموا هذه البلاد الكثيرة التى دخلت الاسلام ، وهـــذه الشعوب المفتوحــــة بهذا الاقتدار وهذا النجـــاح البــاهر وبين هذه الشـــعوب شـعوب كثيرة متحضرة عريقة فى الحضارة ولها قدم ثابتة فى التنظيم الســـياسى والادارى ، مثل فارس والعراق والشام ومصر ، والذى يزيد من دهشة هؤلاء الباحثين أن هذه البلاد عرفت تحت الحكم العــربى

الاسلامى النظام والاستقرار الذى كانت تفتقده قبل الفتح الاسلامى ، وعرفت العدل والمساواة التى لم تكن تحكم بها من قبل ، ولقد اعترفت هذه الشعوب صراحة بهذا كله ، ومصادر التاريخ الاسلامى مليئة بالأسئلة والنماذج التى تدل على أن الشعوب التى شاء لها حسن حظها أن تدخل تحت راية الاسلام قد رحبت بالعرب المسلمين الفاتحين عند سماعها بما يحملونه من عدل وحق ورحمة ، وزاد ترحيب هذه الشعوب بالاسلام وزاد اقبالها على اعتناقه بعد أن رأت بنفسها سماحة الاسلام وعدل المسلمين وحياتهم البسيطة البعيدة عن الترف وصدقهم مع أنفسهم أولا ، لأنهم لم يعلموا الناس بالخط والمواعظ ، وانما علموهم بالقدوة الحسنة ، وما يقولونه يطبقونه على أنفسهم أولا ، لذلك اقتنعت الشعوب بالاسلام وصدقت المسلمين ، ولم يرجع منها شعب واحد عن الاسلام حتى الآن ،فكل المناطق التى وصل اليها الاسلام لم يتراجع عن منطقة واحدة منها ، بل زاد انطلاقه فى الأرض حتى فى اوقات ضعف المسلمين العسكرى وتذهورهم السياسى باستثناء منطقة واحدة تراجع عنها الاسلام وهى اسبانيا ، والسبب الحقيقى فى ذلك التراجع هو تفكك المسلمين وتناحرهم فيما بينهم ، مما مكن عدوهم من الاجهاز عليهم جميعا ، ولعل فى ذلك الماضى البعيد عبرة وعظة لحاضرنا ومستقبلنا ، وعظة العرب والمسلمين تكمن فى وحدتهم ، وضعفهم لا يأتى الا عن طريق الخلاف والتنازع والتناحر الداخلى .

ولعل الباحثين الأوربيين الذين يندهشون لنجاح المسلمين فى ادارة الشعوب المتحضرة التى أصبحت تحت حكمهم لا يدركون روح الاسلام الذى جاء لانقاذ البشرية كلها من الظلم والفساد الدينى والاضطراب السياسى والاقتصادى ، والتدهور الأخلاقى الذى كانت تعانى

منه . ولعل هؤلاء الباحثين لم يفطنوا الى حقيقة اخرى وهى أن العرب الذين حملوا هذه المسئولية وقاموا بهذه المهمة وان لم تكن لهم تجارب سابقة فى ميادين السياسة والادارة ، الا أنهم كانوا على استعداد فطرى للقيام بهذه المهمة الكبيرة ، فقد فجر الاسلام الطاقات الكامنة فى أعظم النجاحات فى كل الميادين ، العسكرية والسياسية والادارية والحضارية ، وكان العرب كالأرض البكر الخصبة التى طال احتباس المطر منها فزاد ذلك من خصوبتها واستعدادها للانتاج المثمر ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وكان الماء الذى نزل على الأمة العربية هو الاسلام . والعرب أنفسهم لم يكونوا يفكرون قلة خبرتهم ومعلوماتهم السياسية والادارية . ولم يستكبرا عن الاستفادة من غيرهم فى هذه الميادين . بل ان من أكبر فضائل العرب التى اعترف لهم بها كبار الباحثين ، والتى علمهم الاسلام اياها هى استعدادهم الدائم اليقظ للعلم والتعلم من الذين يملكون العلم والخبرة والقرآن الكريم يعلمهم أن يسألوا أهل الذكر ان كانوا لا يعلمون ، فالانسان مهما كان لا يمكن أن يعلم كل شىء وهو محتاج دائما الى غيره والى خبرته وتجاربه .

والواقع أن المسلمين أظهروا فى هذا المجال تفتحا عقليا يثير الاعجاب لا فى مجال الادارة فقط ، ولكن حتى فى مجال العلوم والثقافة ، والا فمن الذى علم المسلمين علوم الاغريق وفلسفتهم وسائر تراثهم الفكرى ، ذلك الاستعداد الذى نماه الاسلام وفتح أمامه آفاق الكون كله ، والتعلم من الغير ليس عيبا أو نقصا ، بل هو فضيلة من الفضائل الانسانية ، والحكمة ضالة المسلم ان وجدها أخذها ولا يضره من أى وعاء خرجت ، ولقد ضرب **النبى ـ صلى الله عليه**

وسلم – المثل عاليا لأمته فى التعليم من الغير لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . والمثل الذى ضربه **النبى صلى – صلى الله عليه وسلم** – يتمشى فى هذه القصة فقد كان زيد بن ثابت أحد أصحاب رسول‌الله ، واحد كتاب الوحى الذين يكتبون لرسول الله ، وكان زيد شابا متوقد الذكاء حاد الذهن قوى الحافظة ، يفض حيوية ونشاطا ، وفى يوم من الأيام سأل رسول الله زيد أتعرف اللغة السريانية ؟ وكان جواب زيد لا يارسول الله ، فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – اذهب فتعلمها فانه تأتينى كتب ورسائل – وذهب زيد الى سوريا حيث تعلم اللغة السريانية فى احدى مدارسها على أساتذة من السريان غير المسلمين ، وعاد زيد الى المدينة بعد أن أتقن اللغة السريانية كما أمره رسول الله . وأصبح واحد من سكرتارية النبى الذين يجيدون عدة لغات أجنبية ، وأصبح زيد قادر على ترجمة الرسائل التى ترد على الرسول بهذه اللغات ولعل القارىء يعرف أن زيد بن ثابت هذا هو الذى عينه أبو بكر الصديق رضى الله عنه رئيسا للجنة التى كلفها لجمع القرآن ، ثم كان زيد نفسه رئيس اللجنة الثانية التى كلفها الخليفة الثالث عثمان بن عفان بجمع القرآن للمرة الأخيرة على لغة واحدة ، قاصد كتاب الوحى يذهب ليتعلم لغة أجنبية فى مدارس اجنبية على اساتذة اجانب بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام ، انه درس رائع للمسلمين لئلا يستكبروا على تلقى العلم من أى مكان وعلى يد أى انسان .

بهذه الروح التى خلقها الاسلام فى العرب أقبلوا يتعلمون فى شتى المجالات ومنها مجال الادارة وأساليبها

وكان رائد العرب العظيم فى علوم الادارة وتعلمها من الشعوب الأخرى هو الخليفة عمر بن الخطاب الذى

اتسعت فى عهده رقعة الدولة الاسلامية وانطلقت عجلة الفتوحات تطوى البلاد والمناطق والفيافى والقفار ، وبدأت الأموال تتدفق على الخليفة فى العاصمة الاسلامية الأولى ، مدينة الرسول — عليه الصلاة والسلام — بطريقة غير معهودة لدى العرب من قبل وتحير الخليفة العظيم كيف يصنع بهذه الأموال الكثيرة خصوصا وأنه لم يكن هناك بيت للمال فى عهد رسول الله — عليه الصلاة والسلام — لأنه كان يوزع الأموال التى تأتيه سواء من الصدقات أو من غنائم الحرب أولا بأول أو كانت مقادير هذه الاموال بسيطة على كل حال حتى فى عهد ابى بكر الصديق ولا يمكن مقارنتها بسيل الأموال الذى أخذ يتوارد على عمر وكثر كثرة هائلة تطلبت تصرفا آخر ملائم وتنظيما جديدا يتفق مع الظروف الجديدة يصون هذه الأموال حتى يأخذ منها كل ذى حق حقه ، وحتى يتوفر للدولة فائض منها تنفقه فى مشاريعها ومرافقها وتدخره لوقت الحاجة ، شغلت هذه القضية تفكير عمر وأخذ يبحث لها عن حل مناسب فالأسلوب الذى اتبعه الرسول — عليه الصلاة والسلام —وأبو بكر لم يعد ملائما للظروف الجديدة بعد أن كثرت الأموال كثرة هائلة .

فقد جاء أحد عمال الصدقة — وهو الصحابى الجليل أبو هريرة — الى عمر بنصف مليون درهم ، فسأله عمر عما جاء به فقال له خمسمائة ألف درهم يا أمير المؤمنين ، فدهش عمر عندما سمع هذا الرقم الكبير ، فقال لأبى هريرة أتدرك ما تقول ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين مائة الف خمس مرات ، قالها ابو هريرة بأسلوب من يريد أن يؤكد للخليفة صدق الخبر ، ولكن الخليفة الذى لم يكن يألف هذه الأرقام من قبل لم يقتنع وكأنه استكثر هذا القدر وظن أن أبا هريرة قادم من سفر وربما يكون التعب جعله

لا يدرى ما يقول ، فقـــال له اذهب ونم واسترح فاذا كان الصباح فأتينى ، وذهب أبى هريرة كما أمره الخليفة ، وفى الصباح اتاه بالمال وتأكد الخليفة من صحة كلام أبى هريرة وأن الرقم وهو نصف مليون درهم صحيح ، ولكنه لازال فى دهشته ، وهذا يصور مدى البساطة التى كان عليهاالعرب عند ظهور الاسلام ، فأمير المؤمنين يرى أن نصف مليون درهم هو أمر كبير يستحق هذه المراجعة وهذا التثبت ، على كل حال نادى عمر فى الناس الصلاة جامعة ــ على عادته عنــدما كان يبت فى أمــر خطير فلا يبث فيه حتى يجمع الناس فى المسجد ويخطب فيهم ويشرح لهم القضية التى سوف يبت فيها ــ فلما اجتمعوا خطب فيهم قائلا : (أيها الناس لقد أتانا مال كثير فان شئتم ان نعده لكم عدا ، وان شئتم أن نكيله لكم كيلا) بعد ان انتهى الخليفة من كلامه أشار عليه أحد الحاضرين وكان رجلا فارسيا ان يغير هــذه الطريقة فى توزيع الأموال فهذا الأســلوب غير سليم ولم يعد ملائما للظروف الجديدة فتوزيع الأموال على الناس أولا بأول وعدم الادخار منه الى وقت الحاجــة قد يؤدى الى الاضرار بمصالح الدولة ، فضــلا عن أن هذا التوزيع بهذه الطريقــة الغير منطقيــة قد يؤدى الى الانحراف ، كأن يأخذ أحــد من النــاس من هذا المـــال أكثر من مرة ولا دليل يثبت أنه قد سبق له الأخذ فالأموال لم تدون . عندئذ رد الخليفـــة على هــذا الرجل قائلا : اذن ماذا نصنع . فقال الرجال لقد رأيت الفرس يتخذون ديوانا يكتبون فيه الناس على قدر منازلهم ، ومن أخذ شــيئا يسجل عليــه ، وبهــذا تنضبط الأموال ، وأرى ان تنشىء ديوانا كديوان الفرس .

صادف هذا القول قبــولا لدى الخليفة الذى كان يفكر فى حل لهذة المشكلة فقبل الاقتراح على الفور ، ولم يرفضــه لأنه جاء من رجل فارسى ولم يرفضــه لأنه جاء من

تجربة فارسية طالما ان ذلك سوف يحقق فائدة للمسلمين ولم يصطدم بأصل من أصول الاسلام . وبهذا انشأ الخليفة العظيم عمر بن الخطاب اول ديوان فى الاسلام ، وهو الديوان الذى يطلق عليه المؤرخون المسلمون ديوان الجند وكلمة ديوان كلمة فارسية الأصل وأصبحت تستخدم فى الدولة الاسلامية علما على جهاز من أجهزة الدولة يشبه الوزارة فى العصر الحاضر ،فديوان الجند يشبه وزارة الحربية ، وديوان الخراج يشبه وزارة المالية الخ .

منذ هذه اللحظة أنشأ عمر رضى الله عنه أول ديوان فى الاسلام ، وهو ديوان الجند الذى سجلت فيه اسماء المسلمين من الجند المقاتلين ومن غيرهم ، وكتب امام كل واحد المرتب الذى خصص له طبقا لمنزلته فى الاسلام ، وأصبح هناك خزانة عامة تحفظ فيها الأموال الزائدة لوقت الحاجة ــ وهذه الخزانة أطلق عليها بيت المال .

وبهذا بدأت عبقرية عمر تدرك أهمية الاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى وخبرتها فى مجال الادارة وتنظيم أجهزة الدولة الاسلامية الناشئة ، وحتى فى التقسيم الادارى للأقاليم التى دخلت فى حوزة الدولة الاسلامية وأصبحت أجزاء منها استمدها عمر من التجارب الادارية السابقة فى هذا المجال ، فعندما قام الخليفة عمر بزيارة لأقليم الشام ، وكان كثير التردد عليه أثناء الفتوحات الاسلامية لتفقد سير الفتوحات والاطمئنان على القواد والجنود ، عندئذ رأى عمر التنظيم الادارى الذى كان البيزنطيون قد وضعوه للشام عندما كان تحت سيطرتهم وأعجب عم ربدقة هذا التنظيم ، وعندما بدأ يعيد تنظيم هذا الاقليم تحت الادارة العربية الاسلامية ، وضع له نظاما اداريا جاء نموذجا للنظام الادارى البيزنطى مع ادخال الروح العربية الاسلامية على هذا النظام ، فقد قسم الخليفة

اقليم الشام الى عدد من الأجناد ، والأجناد جمع جند وهى مشتقة من اسم الجنود المحاربين واطلقت كلمة جند على كل منطقة يقيم فى حاضرتها فرقة من فرق الجيش الاسلامى وكان هذا هو نفس النظام السائد فى الشام قبل الفتح الاسلامى . فمنذ عهد الامبراطور هرقل فى أوائل القرن السابع الميلادى . قام هذا الامبراطور باعادة تنظيم أقاليم الدولة البيزنطية ووضع لها نظاما يحكمه من دفع الخطر الفارسى الذى أخذ يهدد كيان الدولة كلها . وكان جوهر هذا النظام الجديد تقسيم المناطق الى أقاليم توضع ادارة كل اقليم سواء كانت عسكرية أو مدنية تحت ادارة قاعدعسكرى من القواد االكبار . وبهذا استطاع هرقل أن يهيىء الدولة لمقاومة الفرس ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا واستطاع أن يهزم الفرس شر هزيمة ولما جاء العرب وفتحوا الشام رأى عمر الا بأس من الاستفادة من هذا النظام الذى يوفر للقائد فرصة كبيرة لضبط الاقليم وادارته ادارة سليمة .

كذلك أبقى المسلمون على النظام الادارى والتقسيمات الادارية التى كان يطبقها البيزنطيون فى مصر ــ حيث كانت مصر قبل الفتح الاسلامى مستعمرة بيزنطية ــ فقد كانت مصر خلال الحكم البيزنطى تنقسم اداريا الى قسمين كبيرين ، هما مصر السفلى ، أى الدلتا ، ومصر العليا ، أى الصعيد ، وانقسم كل من هذين القسمين الى أقسام ادارية أصغر عرفت عند البيزنطيين بالبجارخى ، وعرفها العرب باسم الكور جمع كورة ، والكورة كانت تعنى ما نطلق عليه اليوم كلمة محافظة ، فلما فتح العرب مصر وجدوا هذا التنظيم قائما أبقوا عليه كما هو لأنهم رأوه يؤدى الغرض المطلوب فى حسن سير الادارة بعد ادخال الروح العربية الاسلامية فى الادارة أو ليس المهم هو التقسيم والتنظيم الادارى . وانما الأهم من ذلك الرجال

والعقليات التى تدير هذه الاقاليم دفعا لمصالح الرعية وهـذا هو المجال الذى تفوق فيه العرب .

ولم يبق العرب فقط على التقسيمات الادارية ، وانما احتفظوا كذلك بالأجهزة الادارية والتى كان من أهمها جهاز حكام القرى والذين كان يطلق عليهم لفظ — موازيت — وهى كلمة يونانيـة معناها شيوخ القرى — وظل هـؤلاء الموازيت يباشرون الأعمال التى كانوا يؤدونها فى العهد البيزنطى وأهمها جمع الضرائب وارسالها الى بيت المال أو تحديد مقاديرها — وكذلك العمل على استتباب الأمن فى البلاد . وهذه الأمثلة التى ضربناها على ابقاء العرب على الأنظمة والاجهزة الادارية فى الشام ومصر كما وجدوها ، أمثلة نقدمها على سبيل المثال فقط لأن هذا كان أسلوب العرب المسلمين فى جميع الأقطـار والامصار . فلم تكن تهدف الادارة الاسلامية التغيير من اجل التغيير فقط ، وانما كان هدف الادارة العربية هو ادارة البلاد والشعوب التى فتحوها طبقا لروح الاسلام ومبادئه العليا فى العدل والمساواة ، وتحقيق الخير والأمن للرعية . ولم تكن العقلية الادارية الاسلامية جامدة تركن الى الكسل والراحة وتكتفى بما هو موجود ، وانما كانت العقلية الادارية الاسلامية متفتحـة ومرنة ومتطورة ومستجيبة لتطور الظروف فكانت تعدل وتغير وتطور وتحدث من النظم والأجهزة الادارية ما تدعو الضرورة اليه .

وشىء آخر لم تغفـله العقليـة الادارية الاسـلامية وهو الاستفادة والاستعانة بآراء رجال الادارة القدماء فى البلاد المفتوحة ، والأخذ بمشورتهم فى احسن الطرق والأساليب لادارة البلاد ادارة منضبطة ، باعتبار أهالى البـلاد الاصليين أعلم بشئون بلادهم وبما يصلح لها من النظم والوسائل ، ولم يكن أهل البلاد يترددون فى اخلال النصيحة للمسلمين بعد أن عرفوهم حق المعرفة . وتأكدوا من حرصهم الشديد على

الحكم العادل وتحقيق المساواة بين الناس ، على اختلاف عقائدهم واجناسهم ولغاتهم .

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما حدث في مصر بعد فتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . فمن المعروف عن عمر رضى الله عنه ، انه كان يحرص أشد الحرص على حسن سير الادارة في البلاد المفتوحة أو أن تسير الأمور فيها طبقا لما يأمر به الاسلام من العدل والرحمة ، فبعد أن تم فتح مصر على يد القائد العربي العبقرى عمرو بن العاص عين الخليفة القائد الفاتح حاكما لمصر ، وكتب الخليفة عمر الى حاكم مصر عمرو بن العاص أن يسأل خبراء الادارة القدماء في مصر والعارفين بشئونها عن أفضل الأساليب لادارتها ادارة سليمة تحقق أهداف الاسلام ومبادئه العليا في العدل والمساواة بين الرعية .

فسأل عمرو بن العاص رجلا ارتبط به برابطة صداقة وهو البطريق بنيامين ، وكان بنيامين مغضوبا عليه من السلطات البيزنطية قبل الفتح الاسلامى بسبب اختلافه مع حكومة القسطنطينية حول العقائد الدينية المسيحية ، حيث كان هذا البطريرك يعتنق مذهبا مسيحيا يختلف عن المذهب الرسمى الذى كانت تعتنقه الدولة رسميا ، فاضطهدت الدولة البيزنطية هذا الرجل الذى اضطر أن يهرب من عيون السلطة خوفا من العقاب وظل بنيامين مختفيا في مكان مجهول حوالى ثلاث عشرة سنة ، الى وقت الفتح الاسلامى ، وبعد أن فتحت مصر واصبحت جزءا من الدولة الاسلامية أعلم القائد الفاتح أن المسلمين لا دخل لهم في الخلافات العقائدية بين المسلمين ، ولكل انسان مطلق الحرية في أن يعتنق الدين والمذهب الذى يريده ، ولما علم عمرو بن العاص بقصة البطريرك بنيامين عفا عنه وسمح له أن يعود الى الاسكندرية ليباشر وظيفته القديمة كبطريرك لهذه المدينة العظيمة ، وسر بنيامين جدا

لهذا التصرف المتحضر من جانب عمرو بن العاص والذى لا يمكن أن يقارنه بالتصرفات الوحشية التى كانت تحدث من رجال الادارة البيزنطية . كما سر المسيحيون الذين كانوا فى أشد الغضب للظلم والاضطهاد الذى وقع على بطريركهم بنيامين . لهذا ارتبط عمرو بن العاص برابطة صداقة مع هذا الرجل الخبير بشئون مصر ، واطمأن الرجل الى عمرو ووثق به ثقة كاملة ، كما أعجب بتسامح المسلمين واخلاقهم .

فلما سأل عمرو بن العاص بنيامين — طبقـا لتعليمات الخليفـة — عن أحوال مصر وعن أحسن الأساليب لادارتهـا وتحقيق الخير لابنائهـا ، عنـدئذ أجاب الرجل فى صراحة واخلاص أن أفضل طريقة لعمار مصر وحسن ادارتها أن يجمع خراجها فى وقت واحد عند فراغ الأهالى من جمع المحاصيل الزراعية ، وأن يتعهد الحاكم بالعناية والرعاية ووسائل الرى مثل حفر الترع والخليجان واقامة الجسور والقناطر لتحسين أحوال الزراعة التى هى المصدر الأساسى للدخل فى مصر ، ثم نصح بنيامين عمرو بن العاص بأن يأخذ بالقوة على أيدى العابثين وأهل البغى والعدوان حتى يطهر البلاد من المنحرفين وحتى يشعر المواطنين بالأمن والأمان والاستقرار .

وكانت هذه نصيحة مخلصة طبقها عرو بن العاص وآتت ثمارها الطيبة وحققت العمار والرواج الاقتصادى لمصر كما أشاعت الأمن والاستقرار فى مصر بصورة لم تعرفها البـلاد قبل الفتح الاسلامى .

وخلاصة ما سبق أن رجال الادارة المسلمين كانو على درجة عالية من المرونة والتفتح الفعلى والاستعداد الكامل للاستفادة من الخبرات السابقة ، والابقاء على النظم والأجهزة الادارية السابقة طالما أن ذلك لا يتعارض مع اهداف الاسلام العليا وهى تحقيق العدل والمساواة بين المواطنين .

وقد تحقق كل ذلك عندما كان الحاكم المسلم يراقب الله ويعمل على تنفيذ شريعته وقد نعمت الشعوب المفتوحة تحت الحكم العربى الاسلامى بصورة لم يسبق لها مثيل وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى المؤرخون الأوربيون انفسهم .

الموظفون الأداريون القدماء يبقون فى مناصبهم تحت الحكم الاسلامى

ان الدراسة المنصفة لتاريخ الاسلام وحضارته توضح أن الفكر الادارى الاسلامى كان بناء منذ البداية ، حريصا على ادارة الدولة وأجهزتها المختلفة ادارة سليمة ، فلم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم أو من أتى بعده من خلفائه الراشدين بتصرف ادارى من شأنه احداث خلخلة فى المجتمع أو اضطراب فى الادارة ، بل كل تصرفاتهم الادارية كانت تقوم على دراسة موضوعية للظروف التى يعيشونها ، ومرونة تستجيب لحاجات المجتمع المتغير والمتصور باستمرار بحيث تحفظ توازن المجتمع وتعمل على أمنه واستقراره .

والأسلوب الادارى الذى طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون فى البلاد التى فتحوها وأصبحت أجزاء من الدولة الاسلامية ، هذا الأسلوب يدل على وعى كامل بكافة الظروف السياسية والادارية والاجتماعية لهذه البلاد. ومن أبرز سمات هذا الأسلوب الادارى الاسلامى الابقاء على الموظفين والاداريين القدماء فى مناصبهم التى كانوا يتولونها قبل الفتح الاسلامى . ولم يطلب الاسلام من هؤلاء الموظفين شيئا سوى أن يسيروا سيرة صالحة فى رعاياهم ، وان يرعوا حقوقهم ويطبقوا بينهم الشريعة الاسلامية المسيحية فى صورة من المساواة المطلقة التى هى من أهم المبادىء الاسلامية .

من المعروف أن الفرس كانوا يحتلون اليمن منذ أواخر القرن السادس الميلادى ، واستمروا يحتلونه حتى ظهور

الاسلام ، وعند ظهور الاسلام كان يحكم اليمن باسم الدولة الفارسية رجل فارسي اسمه باذان — وفي العام السادس بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم مجموعة من الرسائل الى الملوك والحكام المعاصرين يدعوهم فيها الى الاسلام ، وكان من بين هذه الوسائل رسالة موجهة الى كسرى ابرويز الثاني ملك الفرس ، ولما وصلت هذه الرسالة اليه اعتبرها تطاولا من النبي العربي على مقامه الامبراطوري وأخذته العزة بالاثم ، ولم يرفض فقط الاستجابة الى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بل ارسل الى باذان عاهله على اليمن يطلب منه أن يرسل له النبي مقيدا في السلاسل ليرى فيه رأيه على جرأته وتطاوله عليه ومخاطبته ودعوته الى الاسلام وعندما وصلت هذه الرسالة الى باذان أرسل بمضمونها الى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وفي هذه الأثناء كانت قد حدثت ثورة في فارس قتل فيها كسرى ابرويز وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر هذه الثورة فكتب الى بازان مع مبعوثه بأمر هذه الثورة وقتل الملك ، وعرض النبي صلى الله عليه وسلم على بازان أن يسلم واذا أسلم فلا مانع لدى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبقى في عمله حاكما لليمن باسم الاسلام ونيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقبل الرجل الفارس ما عرضه الرسول وأسلم وأصبح حاكما لليمن وظل في منصبه حتى توفي ثم تولى ابنه مكانه .

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يرى غضاضة في ان يتولى رجل فارسي غير عربي حكم وادارة أقليم كبير مثل اليمن ، وليس من فلسفة الاسلام العامة في الحكم والادارة التغيير لمجرد التغيير ، وانما يهدف الاسلام الى اقامة حياة فاضلة على أساس من العدالة الاجتماعية السليمة ، وتحقيق تكافؤ الفرص ، والغاء الفوارق والطبقية بين المواطنين .

فاذا كان الموظف الادارى القديم لديه الاستعداد لتنفيذ سياسة الاسلام وتطبيق مبادئه، فلا ضير على الاسلام أن يبقى هذا الموظف فى عمله ، بل أن الاسلام يرحب بهذا ليستفيد من خبرته القديمة فى الادارة ، واصبح هذا تقليدا بل قاعدة من القواعد الأساسية التى صار عليها الفكر الادارى الاسـلامى منذ عهـد النبى صلى الله عليه وسلم وظهـر أثر تطبيق هذه السياسة ونتائجها الايجابية بصورة أوضح بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية فى عهد بنى أمية وبنى العباس حيث أصبحت الدولة الاسلامية تشتمل على عدد من الأقطـار ذات التنظيم الادارى المحكم ،والزاخرة باعداد كبيرة من الموظفين والاداريين المدربين على أصول الادارة ، وكان على الخلفاء المسـلمين أن يستفيدوا من هذه الخبرات الادارية فى تنظيم أجهزة الدولة الاسلامية وادارتها ومن الامكانيات الهائلة التى وجـدوها فى البلاد التى فتحوها .

وكانت مشكلة الادارة المشكلة التى يتوقف على نجـاح العرب فيها مصير دولتهم ومستقبلهم كله . وكانت القـاعدة الأساسية فى هذا المجال ، وهى القاعدة التى وضع أساسها النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الرشدون هى الابقاء على الموظفين والاداريين القدماء ليسيروا عجلة الحياة اليومية فى الدولة ، ويضبطوا اداراتها وينظموا لها شئونها الحالية بما لهم من خبرة وتجربة فى هذه الميادين ، ويتفرغ العرب المسلمين فى هذا الدور الحكيم عن قيـام دولتهم لاستكمال بنيانهـا السياسى وقيادة جيوشها وحراسة حدودها التى اتسعت اتساعا هائلا فى عهـــد بنى أمية وكما نضج المجتمع الاسلامى ويصبح قادرا على تربيـة عنـــاصر عربية ادارية قادرة على المشاركة فى ادارة شئون الدولة .

وتظهر عظمة الاسلام وعبقرية المسلمين الادارية فى مجال الادارة وميدان الاستفادة من الخبرات السابقة انهم الى جانب

التفتح العقلى والمرونة لم يكونوا متعصبين للعرب على غير العرب ولا للمسلمين على غير المسلمين . فكل من تتوفر فيه الصفات المطلوبة لتوليه وظيفة معينة وكل من يوجد لديه الاستعداد للمشاركة فى ادارة الدولة الجديدة فالباب أمامه مفتوح حتى ولو كان غير عربى وحتى لو ظل على دينه القديم سواء أكان يهوديا أم مسيحيا ، وهذا أروع مثل على هـذا التسامح الاسلامى وسعة أفق المسلمين .

ومن الأمثلة الواضحة على هذا الأسلوب العربى الاسلامى فى الادارة والحكم أسرة سرجون بن منصور الرومى المسيحى ، فقد كان هـذا الرجل مسيحيا وظل على دينه ولم يعتنق الاسلام ، ومع ذلك تولى منصبا من المناصب الكبيرة فى عهد الادارة الأموية ، فقد كان كاتبـا لديوان الخراج خلال عهود اربعة خلفاء من بنى أمية اى منذ عهد معاوية بن أبى سفيان الى عهد عبد الملك بن مروان . وهى مدة تصل الى حوالى نصف قرن ، والمنصب الذى تولاه سرجون بن منصور منصب خطير فهو بمثابة وزير المالية للخلفاء الأمويين والمهيمن على الشئون المالية للدولة الاسلامية ، وكان سرجون بالاضافة الى كونه وزيرا للمالية ومستشارا ماليا لخلفاء بنى أمية كان بالاضافة الى ذلك متمتع بنفوذ كبير فى الدولة .

تعدى الشئون الماليـة بل كان يقوم بدور بارز فى رسم سياسة الدولة وفى تعيين كبار الموظفين فيها وكان الخلفاء الأمويون يثقون فيه ويستشرونه فى معضلات الأمور ، وكانوا يجعلون رأيه موضع عنايتهم واعتبارهم .

فعندما حدثت ثورة الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ضد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ووصل خبر هذه الثورة الى يزيد شق ذلك عليه وقدر خطورة الثورة التى يقودها هذا البطل الهاشمى حفيد النبى عليه الصلاة والسلام ، وقدر خطورة المتاعب التى قد يسببها له

خروج الحسين بن علي عليه ، وأراد أن يختار رجلا كفأ ليقاوم الحسين ويكفيه خطره ، فاستشار يزيد سرجون منصور كاتب ديوان الخراج ، فقال له سرجون ليس لهذا الأمر سوى عبد الله ابن زياد ، ولكن يزيد ابدى عدم رضاه عن هذا الاقتراح لانه كان يكره عبد الله بن زياد وقال لسرجون سم لى غيره ، عندئذ قال له سرجون : أرأيت لو كان معاوية حيا فأشار عليك به أكنت قابلا ؟ قال نعم ، فأخرج اليه سرجون عهدا من معاوية لعبيد الله بولاية الكوفة ، فقال له يزيد فانفذه اليه ..

الى هذا الحد بلغ نفوذ سرجون بن منصور فى البلاط الأموى ، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين ومستودع أسرارهم ، وهو غير عربى وغير مسلم ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على التسامح الاسلامى فى معاملة غير المسلمين ، والحرص على الاستفادة من خبراتهم فى الادارة .

وهناك مثل آخر وهو الطبيب المسيحى ابن أثال الذى كان طبيبا خاصا لمعاوية بن أبى سفيان ، فالى جانب كونه طبيبه الخاص فقد عينه معاوية فى منصب ادارى كبير ، وهو مدير مالى لمقاطعة حمص وهى مقاطعة كبيرة .

هذه الروح روح التسامح الدينى من جانب العرب المسلمين هى التى جعلت الشعوب ترحب بهم وترضى بحكمهم ، وتتعاون معهم وتقدم لهم خيراتها وتضع نفسها فى خدمتهم وخدمة دولتهم .

فالعرب لم يكونوا يحاربون الشعوب وانما كانوا يحاربون السلطات الأجنبية الحاكمة المستعمرة التى دأبت خلال قرون عديدة على حكم الشعوب بالقوة والبطش والقهر واستغلال خيراتها وامتصاص دماء أبنائها .

جاء العرب لتخليص الشعوب من هذا الكابوس . لا عجب اذا سمعنا الشعب فى الشام يخاطب العرب قائلا لحكمكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم . قال هذا العربى وغير العربى ، اليهودى والمسيحى على السواء . لأن

الاسلام ساوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات اذ لم يرفع طائفة على أخرى ، ولم يضطهد أحدا ، فرسالته هى رسالة العدل والمساواة بين الجميع .

وفى مصر كان ترحيب المسيحيين المصريين بالعرب الفاتحين يفوق كل حد ، وقد تعاون المصريون مع العرب الفاتحين ضد الادارة البيزنطية التى اذاقتهم الوان العذاب ، واضطهدتهم فى دينهم واستنزفت موارد بلادهم ، ولم يتشعروا بالامن والاستقرار والحرية الدينيه الا تحت الحكم العربى الاسلامى .

تعاون العرب المسلمون والأقباط المصريون بعد الفتح العربى الاسلامى على تعمير مصر وتحسين أحوالها وادارتها ، وشارك المصريون فى اداره بلادهم بعد أن كانوا محرومين من ذلك ، وكان باب الوظائف مفتوحا أمام المسيحيين المصريين . ففى عهد الادارة الأموية كان هناك كاتبان مسيحيان فى الادارة المركزية للاقليم أحدهما لادارة مصر العليا — أى الصعيد — والآخر لادارة مصر السفلى — أى الوجه البحرى —

وقد أشار الى ذلك أحد المؤرخين المسيحيين وهو ساويرس أسقف الأشموتين أو ذكر أسماء بعض هؤلاء الاداريين المسيحيين فى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر . وأحد هؤلاء كان اسمه اثناسيوس ، والآخر اسمه اسحق .

واستمر هذا التقليد وهو اشراك المصريين فى ادارة شؤون مصر حتى عهد الدولة العباسية . وكان عدد المسيحيين كبيرا جدا فى ديوان الخراج ، والأجهزة المالية الأخرى لما لهم من خبرة فى هذا المجال .

وهكذا ضرب العرب المسلمون المثل العليا فى التسامح مع الشعوب المفتوحة وأشركوا أهل البلاد فى ادارتها مهما اختلفت أجناسهم وأديانهم . وهذا أدى الى الاستقرار والنظام الذى نعمت به الدولة الاسلامية فى القرون الأولى من تاريخها .

تطوير الادارة مع تطور الظروف فى الدولة الاسلامية

أشرنا فى الصفحات السابقة الى سعة افق المسلمين وتفتح عقليتهم واستعدادهم للاستفادة من الخبرات السابقة فى ادارة الدولة الاسلامية الناشئة ، واشراك أبناء البلاد المفتوحه فى ادارة شؤون بلادهم والابقاء على الموظفين القدماء فى مناصبهم التى كانوا يتولونها وكيف تعاون أبناء هذه البلاد مع الادارة الاسلامية وقدموا لها خدماتهم فى أمانة واخلاص مما كان له أعظم الأثر فى حسن ادارة البلاد وأمنها واستقرارها . واشرنا كذلك الى ان العرب المسلمين لم يكونوا جامدين على القديم بل كانوا جادين فى تنظيم دولتهم وتطوير أجهزتها الادارية لتتلاءم مع الظروف المتطورة باستمرار .

والعرب كما أشرنا الى ذلك فيما سبق لم تكن لهم خبرة سابقة فى الادارة ولكن كان لديهم الاستعداد الفطرى والقدرة الكامنة على التنظيم والحكم والادارة ولما جاءتهم الفرصة بظهور الاسلام صنعوا المعجزات فى كل الميادين . وفى بداية الدولة الاسلامية كانت أجهزتها بسيطة ثم أخذت تتطور وتكبر حتى صارت أكبر دولة فى تاريخ العصور الوسطى وبلغت شأوا بعيدا فى النظام وحسن الادارة .

وقد أشرنا أن أول من وضع لبنة فى الصرح الادارى للدولة الاسلامية هو عمر بن الخطاب حين أنشأ ديوان الجند ، وفى عهد الدولة الأموية وعندما اتسعت مساحة الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا حتى شملت مساحات كبيرة فى ثلاث قارات هى آسيا وأفريقيا وأوروبا عندئذ بدات الحاجة ماسة لانشاء

دواوين وأجهزة ادارية أخرى تلبية لروح العصر وتطـــور مشاكل المجتمع والدولة . وكان الأمويين عباقرة فى مجـال الادارة كما كانوا أبطالا فى مجال الفتح والغزو وتوسيع رقعة الدولة .

ومن الأجهزة الادارية المهمة التى أنشأها الأمويين والتى كان لها دور كبير فى ضبط الدولة الاسلامية وتنظيمها ديوان البريد الذى أنشأه معاوية بن أبى سفيان . كان المســـلمون يعرفون نظام البريد منذ عهد النبى - ص - وكان البـريد يستخدم فى نقل الرســـائل بين النبى - ص - وبين الملوك والحكام المعاصرين وبينه وبين عماله وموظفيه على الاقاليم ، وقواد الجيوش فى ميادين القتال ولكن لم يكن هناك موظفون مخصصون لهذه المهمة ولم يكن هناك ديوان وجهاز يحمـل هذا الاسم ولمـا جاء معاوية ادرك أن الحاجة أصبحت ماسه لتطوير هذا النظام لأهميته للدولة ورأى ان لا بد من انشـــاء جهاز خاص له رجاله وموظفوه يقوم بهذه المهمة الحيـــوية للدولة . خصوصا وأن البريد لم يكن مقصورا فقط على نقل الرسائل والمكاتبات بين الخليفة وغيره من الملوك والحكام وبينه وبين موظفيه وعماله وقواد جيوشه ، بل ان البريد أصـبح يقوم بوظيفة أخرى على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، وهى مهمة شبيهة بما يطلق عليه الآن جهاز المخابرات وجهاز الرقابة الادارية فى الدول الحديثة ، وكان رجال البريديقومون بتكليف من الخليفة بمراقبـــة العمـــال والموظفين فى الأقاليم الاسلامية ، واحاطة الخليفة علما بما يبدو منهم من أعمـــال حسنة أو سيئة ، وتقديم تقارير أمينة للخليفة شخصيا عن سير الادارة فى أرجاء الدولة الاسلامية . وقد أدى هذا الجهاز الذى أنشأه معاوية بن أبى سفيان دورا كبيرا فى تحسين أحوال الادارة حيث كان العمال والموظفون يحرصون أشـــد الحرص على اداء أعمالهم فى أمانة ودقة خشية أن يكشف رجال البريد

احوالهم عند الخليفة الذى لم يكن يرحم أى موظف يقع فى اى خطأ او يرتكب أية جريمة .

وكثيرا ما كان رجال البريد يكشفون أخطاء لبعض الموظفين وكان الخلفاء يحققون على الفور فى صحه وقائع هذه الاخطاء فاذا ثبتت صحتها كان العقاب للمخطىء بالمرصاد . فقد رفع رجال البريد الى الخليفة عبد الملك بن مروان تقريرا عن احد عماله وكان من ضمن ما جاء فى هذ التقرير أن هذا العامل قبل هدية من أحد المواطنين فاستدعى عبد الملك هذا الموظف وسأله : (أقبلت هديه منذ وليتك ؟ فقال أمورك مستقيمه ، والأموال دارة ـ أى كثيرة والعمال محمودين ، وخراجك موفرة فقال عبد الملك : أخبرنى عما سألتك عنه ؟ فقال نعم : فقال له عبد الملك : والله ان كنت قبلت هدية لا تنوى مكافاة المهدى عليها أنك للئيم دنيىء وان كنت قبلتها تستكفى رجلا لم تكن تستكفيه لولاها انك لخائن ، وان كنت نويت تعويض المهدى عن هديته والا تخون له أمانة ولا تثلم له دنيا فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معاونيك وأطمع فيك سائر مجاوريك وسلبك هيبة سلطانك ، وما فى من أتى أمرا لم يخل فيه من لؤم أو دناءة أخيانة أو جهل مصطنع وصرفه عن عمله ، أرأيت كيف كانت جدوى جهاز البريد وفائدته فى ضبط أمور الدولة واطلاع الخلفاء على انحرافات العمال والموظفين وحرص الخلفاء على تطهير أجهزة الدولة من الموظفين الذين يعرضون أنفسهم للقيل والقال ، ويعرضون مصالح الناس للعبث والاضطراب .

ولا تبالغ اذا قلنا أن جهاز البريد هذا الذى أنشأه معاوية بن أبى سفيان فى مطلع العصور الوسطى حيث كانت وسائل المواصلات بدائية قوامها الحيوانات لا تبالغ اذا قلنا أن هذا الجهاز كان على درجة من الدقة والنظام تكفل له سرعة توصيل الرسائل والمكاتبات للخليفة وتحقق له الاتصال

المباشر بحواضر دولته المترامية الأطراف على صورة أفضل بكثير من نظام البريد فى الدول الحديثة وفى عصر تقدم المواصلات وسرعتها على هذا الشكل للمؤهل الذى نراه الآن. فقد وضع المسلمون لجهاز البريد ما يكفل له القيام بمهمته على خير وجه فقد قسمت المسافات بين العاصمة فى دمشق وبين بقية العواصم الكبرى الأخرى فى الدولة الاسلامية الى مسافات كبيرة ، وكانت وسيلة نقل البريد ــ على الخيل السريعة ، وكان البريد يحمل على هذه الخيل بين المسافات القصيرة ، فاذا وصل خيل البريد الى أقرب مكان وجد هناك فى انتظاره خيلا أخرى على أهبة الاستعداد لتحمله الى المكان التالى وهكذا حتى يصل البريد الى عاصمة الدولة الاسلامية فى سرعة فائقة وفى أوقات معينة لا تختلف عنها ولا يضيع أبدا .

أرأيت اذن كيف كان هذا الجهاز ذا خطر كبير فى ادارة الدولة واطلاع الخليفة على كل صغيرة وكبيرة فى أى مكان مهما بعد عن مقر العاصمة . وكيف كان هذا الجهاز يؤدى الخدمات التى تؤديها أجهزة المخابرات والرقابة الادارية فى الدولة الحديثة مع فارق كبير هو أن جهاز البريد فى الدولة الاسلامية كان يؤدى واجبه فى أمانة ونزاهة ودون أدنى انحراف . لأن الانحراف كان يقابل بالعقاب الصارم الناجز .

وتمضى عجلة الحياة وتتطور شؤون الدولة الاسلامية وتزداد مشاكلها ، وكلما طرأت مشكلة بحث لها رجال الادارة المسلمون عن الحل المناسب والحلفاء لا يكفون عن التفكير فى تطوير الجهاز الادارى للدولة وانشاء ما تدعو الضرورة لانشائه من أجهزة ودواوين حتى يتسنى لهم القيام بواجبهم عن طريق خلق أداة حكومية يقظة ومتطورة خدمة لجماهير المسلمين . وكان أهم الأجهزة التى أنشأها معاوية بن أبى سفيان كذلك لتطوير الادارة الاسلامية ذلك الجهاز الذى أطلق عليه مؤرخو

النظم الاسلامية ــ ديوان الخاتم وكان هذا الديوان عبارة عن سكرتيرة للخليفة تشرف على اتصالاته ومراسلاته سواء مع الملوك والحكام الأجانب أو مع العمال وكبار موظفى الدولة الاسلامية فى الداخل . وكانت الرسائل التى ترد باسم الخليفة تصله عن طريق هذا الديوان . أما الرسائل التى كان يصدرها الخليفة فكانت ترسل الى ديوان الخاتم ثم تحفظ نسخة من الرسالة وتختم الأخرى وترسل الى الجهة الصادرة اليها ، سواء كانت رسالة لملك أو امير او كانت أمرا من الخليفة صادر الى عامل من العمال أو موظف من الموظفين . وكان الهدف الاساسى من انشاء هذا الديوان هو الاحتفاظ بأسرار المكاتبات الصادرة عن مقر الخلافة الى الجهات المختلفة منعا للتغير او التلاعب فيها . وكذلك الاحتفاظ بنسخ من هذه المكاتبات حتى يمكن الرجوع اليها عند الضرورة . وقبل انشاء هذا الديوان كانت المكاتبات التى تصور عن دار الخلافة تصدر من نسخة واحدة فاذا ضاعت فلا يمكن معرفة محتوياتها اذ لا بديل لها . كما أن المكاتبات كانت ترسل دون أن تختم وتقفل بالشمع وفى هذه الحالة يمكن لأى انسان أن يطلع على محتويات هذه المكاتبات كما يمكنه أى تغيير فيها ويعدل وفقا لمصلحته ، وقد حدث هذا فعلا . فقد روى أن معاوية بن أبى سفيان قد أصدر كتابا لواليه على الكوفة زياد ابن أبى سفيان ، وأمر فى هذا الكتاب أن يدفع لعمر بن الزبير ابن العوام مائة ألف درهم ، ولكن عمر بن الزبير فتح الكتاب وكتب بدل المائة مائتين ، وذهب الى زياد الذى لم يكتشف التزوير الذى حدث فى رسالة الخليفة فدفع لعمر بن الزبير مائتى الف درهم ، ثم رفع زياد فى آخر العام حساب ولايته الى معاوية الذى أنكر انه أمر لعمر بن الزبير بأكثر من مائة ألف درهم وعندئذ طلب معاوية عمر بن الزبير وحبسه حتى قضى عن أخوه عبد الله بن الزبير المائة الزائدة . بعد هذه

الحادثة ادرك معاوية ان العمل على هذه الصورة الذى يتيح العبث والتزوير فى مكاتبات الخليفة لم يعد ملائما بل لا بد من أسلوب جديد . ولذلك تفتق ذهنه عن انشاء ديوان الخاتم على الصورة التى شرحناها أيضا حتى يضمن عـدم العبث والتزوير فى مكاتباته .

وهكذا لم يسأل الحكام ورجال الادارة المسلمون جهدا فى تطوير أجهزة دولتهم الادارية وخلق الأجهـــزة الضرورية اللازمة لمواجهة المشاكل الادارية التى كانت تظهر من حين لآخر حتى اذا وصلنا الى عهد الدولة العباسية نجد ان أجهزتهـا الادارية لا تقل عن الأجهزة الادارية فى الدول الحـــديثة مع اختلاف المسميات . فالاضافة الى الدواوين التى تحدثنـا عنها آنفا وهى ديوان الجند الذى انشأه الخليفـــة عمر بن الخطاب والبريد والخاتم اللذان انشأهما معاوية بن ابى سفيان نجد عددا آخر من الدواوين التى انشأها الخلفاء العباسيون مثل ديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الموالى والقلمان وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل أو ديوان النظرنى المظالم وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء كما كانت هناك ادارة خاصة للمحافظة على مصالح الطوائف غير الاسلامية من رعايا الدولة الاسلامية .

وكانت هذه الدواوين تؤدى العمل الذى تؤديه الوزارات والأجهزة الكبرى فى الدول الحديثة فعلى سبيل المثال كان عمل ديوان الزمام يشبه من وجوه كثيرة عمل ديوان المحاسبات

او الجهاز المركزى للمحاسبات فى بلادنا فى الوقت الحاضر . كما كان عمل ديوان الخراج يشبه عمل وزارة المالية وهكذا .

وبجانب هذه الدواوين الرئيسية فى الدولة كانت هناك دواوين أخرى فرعية تتصل بالادارة أو السياسة أو القضاء أو الشرطة ، وهكذا كان التفكير الادارى الاسلامى متطور مستجيبا للظروف حتى استكملت الدولة الاسلامية كل مقوماتها الادارية وكانت أعظم دولة فى العصور الوسطى من حيث الانضباط وسير الادارة واداء الخدمات للشعب .

تعريف الادارة فى الدولة الاسلامية

اسلفنا القول مرارا ان العرب الذين اضطلعوا بعبء تكوين الدولة الاسلامية وقيادة جيوشنا ورسم سياستها وادارتها لم تكن لديهم خبرة واسعة فى مجال الادارة ولكن كان لديهم الاستعداد للتعلم والاستفادة من خبرات الشعوب التى سبقتهم فى مجال الادارة ، والتى فتحوها واصبحت أجزاء من دولتهم المترامية الأطراف . لذلك استعان العرب بكل ذى خبرة ادارية وأعطوا له الحرية والأمان ليعمل فى خدمة الدولة الاسلامية وأعطته مطلق الحرية فى الاحتفاظ بدينه القويم ، وقد رأينا كثيرا من المسيحيين الذين تولوا مناصب ادارية على جانب كبير من الأهمية فى الدولة الاسلامية ، وقد ضربنا المثل بأكثر من واحد من هؤلاء ومن أبرزهم سرجون ابن منصور الرومى الذى تولى ديوان الخراج ، أى كان بمثابة وزير المالية لأربعة من خلفاء بنى أمية ، من عهد معاوية ابن أبى سفيان حتى عهد عبد الملك بن مروان .

كذلك ابقى العرب أعدادا هائلة من الموظفين القدماء فى وظائفهم التى كانوا يتولونها قبل الفتح الاسلامى . وابقوا كذلك على بعض اللغات الأجنبية التى كانت تستخدم فى بعض أجهزة الدولة الاسلامية . وبصفة خاصة فى ديوان الخراج ، الذى كان من اهم أجهزة الدولة الادارية . فكان هذا الديوان هو الجهاز المهيمن على موارد الدولة المالية ومصادرها والاشراف على مرافق الدولة المختلفة ، اذ كان المال هو عصب الحياة للدول قديما وحديثا فلا عجب اذا كان هذا الديوان هو اخطر دواوين الدولة الاسلامية واجهزتها . وقد

بقيت اللغة المستخدمة فى هذا الديوان أجنبية وبقى العمل فيه حكرا على طائفة من الموظفين غير العرب حوالى ثلاثة أرباع قـرن .

فكانت اللغة المستخدمة فى ديوان الخراج فى العراق هى اللغة الفريسية ، حيث كان اقليم العراق قبل الفتح الاسلامى يخضع للسيادة الفارسية . وكانت اللغـة المستخدمة فى ديوان الخراج فى الشام هى اللغة اليونانية ، حيث كان اقليم الشام قبل الفتح الاسلامى خاضعا للسـيطرة البيزنطية ، وكذلك كانت لغة ديوان الخراج فى مصر هى اللغة اليونانية . بجانب اللغة القبطية . واستمر هذا الوضع حتى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى حكم من سنة ٦٥ هـ حتى سنة ٨٦ هجرية .

وكان عبد الملك حريصا على تحقيق الوحدة والانسجام فى الدولة الاسلامية من جميع الوجوه ، فبعد القضاء على الثورات الكبيرة التى واجهته ، والتى كان من أخطرها ثورة عبد الله بن الزبير ، وبعد أن أعاد عبد الملك بهمته العـالية الوحدة السياسية للعالم الاسلامى ، وتغلب على المشـاكل الكبيرة الداخلية والخارجية التى واجهته ، بدأ يتفرغ للتنظيم الداخلى لأجهزة الدولة حتى يحقق لها الوحدة الادارية بعد أن حقق لها الوحدة السياسية ، ونظر عبد الملك ورأى أن اللغات المستخدمة فى ديوان الخراج لغات غير عربية ، وأدرك أن هذا الوضع غير سليم وغير ملائم أو كيف تظل اللغـة المستخدمة فى أهم جهاز من أجهزة الدولة لغة أجنبية أو كيف يخضع النظام الاقتصادى فى الدولة الاسلامية فى أيدى غير العرب ويحرم العرب المسلمون من المشاركة فى العمل فى هذا الجهاز المـالى الخطير . واذا جاز هذا أو كان مقبولا عنـد المنشأة الأولى للدولة وقت أن كانت الخبرة العربية قليلة فى هذا المجال ، فانه لم يعد مقبولا الآن ـ فالعرب الآن تدربوا

تدريبا عمليا على شؤون الادارة ، ودرسوا اللغات الأجنبية وأصبحوا خبراء فيها وأصبح الوقت مناسبا ليتولى العرب أمر جهاز الدولة الاقتصادى وأن تصبح اللغة الرسمية فى هذا الجهاز هى اللغة العربية ، وأغلب الظن أن الخليفة عبد الملك بن مروان قد فكر فى هذا الموضوع منذ بدأ عهده ، وانه أخذ يعد له الرجال الأكفاء الذين يكونون قادرين على الاضطلاع بهذه المسئولية الخطيرة عندما يعطيهم اشارة البدء .

وبعد أن فرغ عبد الملك من القضاء على الاضطراب الذى حدث فى الدولة الاسلامية منذ بداية خلافته ، ذلك الاضطراب الذى استغرق حوالى عشر سنوات من عهده بعدئذ بدأ يتفرغ لاتمام هذا المشروع الخطير ، وهو مشروع تعريف النظام الاقتصادى للدولة الاسلامية ، فعهد الى رجل كفىء ويدعى سليمان بن سعد الخشنى بقفل ديوان الخراج فى الشام من اللغة اليونانية الى اللغة العربية وقد قام سليمان بن سعد بهذه المهمة التى أخذت منه عاما كاملا ، ودلالة على ضخامة العمل وأهميته فقد أعطى عبد الملك لسليمان بن سعد خراج اقليم الأردن لمدة سنة ، كمكافأة له على انجاز هذا العمل العظيم ، وبهذا بدأ عهد جديد فى الادارة الاقتصادية للدولة الاسلامية ، وبدأ الموظفون العرب يعرفون طريقهم الى هذا الجهاز الذى كانت أبوابه مغلقة فى وجوههم قبل هذا الوقت وأصدر عبد الملك أوامره الى الحجاج بن يوسف الثقفى واليه على العراق لنقل ديوان الخراج فى العراق من اللغة الفارسية الى اللغة العربية فعهد الحجاج بهذا العمل الى رجل عربى اسمه صالح بن عبد الرحمن ، ونجح هذا الرجل فى نقل ديوان خراج العراق من اللغة الفارسية الى اللغة العربية كما نجح زميله سليمان بن سعد فى تعريب ديوان الخراج فى الشام .

كذلك قام والى مصر عبد الله وعبد الملك بن مروان لينقل ديوان الخراج فى مصر من اللغة اليونانية والقبطية الى اللغة العربية وبهذا ترى أن العقلية العربية كانت دائما تملك زمام

المبادرة فى سرعة الاستجابة للظروف المتغيرة والمتطـــورة فى الدولة الاسلامية . واثبت العرب انهم اكفاء فى الميــــــادين الاقتصادية كما كانوا فى غيرها من الميادين .

وعملية احلال اللغة العربية محل اللغات الاجنبية فى ديوان الخراج ، وتعريب النظام الاقتصادى فى الدولة الاسلامية ، وفتح المجال أمام الشباب العربى ليثبت وجوده فى هذا المجال هذه العملية كان لها جانب حضارى وثقافى آخر لا يقل اهمية عن تعريب النظام الاقتصادى . ذلك أن هذا أدى الى سرعة انتشـــار اللغـــة العربيـــة بين غير العرب . ذلك ان الموظفين الأجانب الذين كانوا يسيرون ديوان الخراج لم يكونوا يرون ان هناك ضرورة لتعليم اللغة العربية طالما أن اللغة المستخدمة فى الجهاز الذى يديرونه غير عربية . أما الآن أصبحت اللغـــة العربية هى اللغة الرسمية فى كل مؤسسات الدولة الاسلامية وأجهزتها فان كل من يريد أن يحتفظ بمنصبه فى أى جهـــاز من أجهزة الدولة من غير العرب فليس أمامه من سبيل سوى أن يتعلم اللغة العربية .

وهكذا بدأ الأجانب غير العرب يقبلون على تعليم اللغة العربية بدافع الحرص على المصلحة وتدعيم المستقبل وهذا السبب بالاضافة الى أسباب اخرى كبيرة هو الذى أدى الى سرعة انتشـــار اللغة العربيـــة فى الشعوب المتفوقة سرعة لم يعرفها تاريخ أية لغة من قبل حيث أصبحت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى الدولة الاسلامية من حدود الصين شرقا حتى الأندلس فى أوربا غربا وسيطرت اللغة العربية على كل اللغات الحيـــة التى كانت تستخدم فى هـــذه المناطق من قبل مثل الفارسية واليونانية والقبطية الخ ..

بعد أن لمنا فى الصفحات الســـابقة ببعض المعلومات عن بدأ تكوين الدولة الاسلامية وكيف اجتهد المسلمون فى تكوين

هذه الدولة ، وكيف أستفادوا من الخبرات التى سبقتهم فى مجال الادارة ، وكيف استعانوا بالموظفين القدماء فى ادارة دولتهم ثم كيف كانوا على استعداد لتطوير أجهزة دولتهم الادارية استجابة لتطور الظروف وتجدد المصالح ، وكيف بدؤا يعربون الادارة الاسلامية ، ويقضون على مظاهر الشذوذ فى دولتهم حتى تتحقق لها الوحدة الادارية والاقتصادية بعد أن تحققت لها الوحدة الدينية والسياسية ، وبعد أن المنا بهذا كله نريد فى الصفحات التالية أن نعرف بعض التقاليد الادارية التى أرساها المسلمون فى ادارة دولتهم ، والأساليب التى كانت تطبق ، والمبادىء والمثل التى كانت تحكم تصرفات الحكام ورجال الادارة المسلمين فعلى بركة الله .

الرجل المناسب فى المكان المناسب

من المؤكد فى مجال الادارة فى العصور الحديثة ان الفرق بين الادارة الناجحة والادارة الفاشلة يمكن فى تطبيق مبدأ ــ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ــ ووضعه موضع التنفيذ . فاسناد الأعمال الى الرجال الأكفاء الذين يملكون القدرة على النهوض بها كفيل بأن يؤدى الى النجاح والى ايجاد أداة ادارية ناهضة خصوصا اذا روعى فيمن تسند اليهم الأعمال الادارية بالاضافة الى الاستعداد الطبيعى ، ان يكونوا على خلق قويم وسلوك مستقيم ونزاهة تبعدهم عن مواطن الشبهات واذا وجد الرجل الادارى الكفء فلن يكون له من هدف سوى النهوض بعمله وانجاز ما يعهد اليه من أعمال . وتسهيل مصالح الناس وحل مشاكلهم أولا بأول .

ومع أن فقهاء الادارة فى العصر الحديث يركزون على ضرورة تطبيق هذا المبدأ لضمان حسن سير الادارة ولخلق أداة قوية وقادرة على انجاز الأعمال الا أنه من النادر جدا أن تجد هذا المبدأ وهذا الشعار يوضع موضع التنفيذ الأمر الذى أدى ويؤدى الى خلل كبير فى الادارة ينتج عنه الضرر البليغ بمصالح الناس لأنه ليس أسوأ على مصالح الناس من فساد الادارة وليس أضر على الادارة من اسناد الأعمال الى غير الأكفاء مجاملة لهم أو لأقربائهم ، واذا تفشت الوساطة والمحسوبية فى مجتمع ما ، فقل على هذا المجتمع السلام . ويتنبأ له بعواقب وخيمة .

وهنا فى هذا المجال يظهر تفوق الفكر الادارى الاسلامى

لأننا اذا رجعنا الى تراثنا الادارى فى تاريخنا الاسلامى فاننا نجد المبدأ والتطبيق ، الشعار والتنفيذ ، فلم تنفصل النظريات عن التطبيق العملى فى واقع الحياة . والفكر الادارى الاسلامى كان على وعى كامل لأهمية وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب . وبجانب هذا المبدأ حرص الفكر الادارى الاسلامى على تطبيق مبدأ آخر لا يقل عنه أهمية فى نجاح الادارة وسيرها سيرا طبيعيا . ذلك المبدأ هو تكافؤ الفرص بين المواطنين ــ فكل من تؤهله قدراته الذاتية واهميته الشخصية لعمل من الأعمال فليس هناك ما يمنع من أن يلى هذا العمل مهما كان جنسه أو لونه او حسبه أو نسبه . أو حتى عقيدته . وقد رأينا أمثلة لحالات كثيرة اسندت فيها أعمال خطيرة لغير المسلمين وقد سئل معاوية بن أبى سفيان مرة عن السبب فى انه يكثر من استخدام المسيحيين فى أجهزة الدولة الاسلامية المختلفة فأجاب بأنه يجدهم أهلا لذلك لديهم القدرة والخبرة على النهوض بالأعمال .

والاسلام فى هذه الناحية كما هو دائما فى كل نواحى الحياة لا يجامل الأفراد ولا يهتم برضا الاقارب والمحاسيب والاصهار على حساب المصلحة العامة . ولكنه يضع مصلحة المجتمع فوق كل اعتبار مع عدم اغفال مصالح الأفراد بطبيعة الحال لأن فلسفة الاسلام فى الحياة تقوم على ايجاد التوازن الدقيق الواعى بين مصالح المجتمع ومصالح الأفراد كما يحرص الاسلام على ايجاد التوازن الدقيق بين مطالب الروح والجسد تماما بتمام .

والاسلام عندما يتحدث عن مبادىء مثل مبدأ ــ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ــ ومبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين ــ فانه لا يعنى مجرد الكلام النظرى . بل يعنى التطبيق العملى الدقيق ، وهذا الفرق هو بين الادارة فى الاسلام وبين الادارة الحديثة . فبينما كانت الادارة فى الاسلام تعنى

بالتطبيق أكثر من التنظير فان الادارة الحديثة تعنى بوضع النظريات أكثر من عنايتها بالتطبيق . وعناية الادارة فى الاسلام بالتطبيق العملى للمبادىء التى تؤمن بسلامتها نظريا هو الذى أدى الى ازدهار المجتمع الاسلامى وتفوقه وتفوق الدولة الاسلامية فى المجالات السياسية والادارية والعلمية والخلقية الخ . لأنه ليس سرا الآن أن أكثر الدول تقدما وتفوقا فى هذه المجالات هى الدول التى تملك جهازا اداريا كفؤا أو تطبق أفضل الأساليب الادارية فى انجاز المصالح اليومية للمواطنين وفى المشاريع الكبرى على السواء . ومبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ومبدأ تحقيق تكافؤ الفرص بين المواطنين هما المبدآن اللذان حرصت الادارة الاسلامية على مراعاتهما مراعاة تامة ضمانا لحسن سير الأمور .

فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو رسول الأمة الاسلامية وقائدها الأعلى ومدير شئونها لم يكن يعهد بأى عمل من الأعمال لأى انسان ، الا اذا كان كفؤا وحائزا لكل المميزات التى تجعل منه موظفا ناجحا واداريا بارعا فولاية الوظائف العامة ــ عسكرية كانت أو سياسية أو ادارية ــ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كانت لأفضل الناس وأصلحهم وأكثرهم أمانة وقدرة ــ ولم يكن هناك بطبيعة الحال أى مجال للوساطة أو المحسوبية أو القرابة وما شاكل ذلك من الأمور التى تفشت فى مجتمعنا وأدت الى الفساد الادارى الذى تعانى منه نتيجة اسناد الأعمال الى غير الأكفاء وغير المؤهلين لها لا عقليا ولا علميا .

وكان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من فرط الحساسية وابعاد الشبهات لا يعهد لأقربائه وأبناء عمومته بأعمال من أعمال الدولة الاسلامية ليضرب المثل للمسلمين فى أن الحاكم لابد أن يكون نزيها وأول مبادىء النزاهة عدم اغداق الوظائف العامة على أهله وأقربائه . لئلا يستغل أحد من أهله قربه

منه اذا عهد اليه بعمل ويسيء فى عمله وتكون النتيجة غير محمودة . ولعل خير ما يوضح هذا المعنى ذلك الحوار الذى دار بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبين عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال عمر لابن عباس : انى رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركك . قال ابن عباس : والله لقد رايت الذى رايت، ولم تراه فعل ذلك ؟ قال عمر : والله ما أدرى أصرفكم عنه ودفعكم عنه وأنتم أهل لذلك ، أم خشى ان تعارضوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ولابد من عتاب فقد فرغت لى وفرغت لك فما رأيك ؟ قال ابن عباس لا ارى ان أعمل لك : قال عمر : ولم ؟ قال لأنى ان عملت لك وفى نفسك ما فى نفسك لم أبرح قذاء فى عينك . قال عمر فأشر على ، قال ابن عباس : أشير عليك أن تستعمل صحيحا منك صحيحا عليك ، ولعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يهدف من وراء ابعاد أهله وذوى قرباه عن ادارة أجهزة الدولة الاسلامية الناشئة أن يضرب المثل لخلفائه وحكام المسلمين فى كل زمان ومكان أن يضعوا المصلحة العامة فوق كل اعتبار آخر ، والا يكون السبيل لتولى المناصب العامة هو القرابة وصلة النسب ، بل يكون السبيل الى ذلك التقوى والصلاح من حيث السلوك الخاص ـ والخبرة والتجربة والقدرة على تأدية الاعمال فى نزاهة وأمانة لتحقيق الأهداف العليا للمجتمع وهى مصلحة جماهير الناس .

ونلاحظ فى عهد حكومة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه عندما كان يختار رجلا ليتولى منصبا عاما من مناصب الدولة انه كان يضعه تحت الاختبار قبل أن يسند اليه أى عمل ادارى ، فاذا أثبت الشخص أنه كفء وأنه عند حسن الظن به فلا مانع بعدئذ من أن يتولى أى منصب ادارى من مناصب الدولة حسب قدراته وخبراته وطاقاته الجسمية والعقلية .

هذا الأسلوب العلمى الدقيق الذى كان يطبقه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مجال الادارة العامة أدى الى ظهور عدد هائل من رجال الادارة البارزين فى عهــده ، ونجاحهم نجاحا باهرا فى تأدية اعمالهم ، وتفانيهم فى خـدمة المجمـوع وانكارهم لذواتهم ، لأن الواحد منهم لم يكن يرغب فى العمل من أجل الجاه والسلطان والمغـانم الشخصية ، وانما كانوا يندفعون الى العمل ويبذلون فيه قصارى جهـدهم بحسبان ذلك خدمة عامة وقربة يتقربون بها الى الله تعـالى ، وهم مؤمنون بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ومن المبادىء الادارية الهامة التى طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ان طالب الولاية لا يولى ، أى أن من كان يتهافت على تولية الوظائف العـامة ويلح فى طلب ذلك كان يستبعد تماما عن ميادين العمل ، لأن مجرد طلب الانسان أن يتولى احدى الوظائف العـامة يعتبر فى حد ذاته شبهة تثير الشـكوك حوله ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائما يرفض تولية من يطلب العمل حتى ولو كان من الصحابة الاجلاء .

فقد روى أبو موسى الأشعرى قال : دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحدهما يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (انا والله لا نولى هذا العمل أحدا يسـأله أو أحـدا يحرص عليه) وطلب الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى رضى الله عنه من رسـول الله ـ عليـه الصـلاة والسـلام ـ أن يعينـه فى بعض الوظائف العامة فقال يا رسول الله ألا تسـتعملنى فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ (يا أبا ذر انك ضعيف ، وانى أحب لك ما أحب لنفسى ، وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة من اخذها بحقها وأدى الذى عليه

منها) وقال الرسول ـصلى الله عليه وسلم ـ مثل ذلك لصحابى آخر يدعى عبد الرحمن بن سمرة .

أرأيت كيف كان حرص الرسول ـعليه الصلاة والسلام ـ على سلامة المبدأ ، وعدم تولية المناصب العامة الا لمن يكون مؤهلا لها . فالصلاح والتقوى وحدهما لا يكفيان لأن يكون الرجل اداريا ناجحا ، بل لابد مع ذلك من توافر شروط أخرى ، مثل الأمانة والنزاهة والقدرة والكفاية وسرعة البت فى الأمور واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب .

واذا ترجمنا هذا الكلام الى لغتنا المعاصرة لوجدنا أن معناه أن الأعمال لا يجب أن تسند لأهل الثقة لمجرد الثقة بل لابد أن توجد مع الثقة الخبرة والأمانة والقدرة ، حتى يتوفر للدولة جهاز ادارى ناجح .

والفكر الادارى الاسلامى سبق النظم الحديثة فى تقرير مبدأ تكافؤ الفرص ، واتاحة الفرصة أمام الشباب لتولى الوظائف العامة ، والمشاركة فى ادارة الشئون العامة حتى يتمرسوا عمليا على الادارة وبعض النظم الحديثة تفخر بأنها تطبق شيئا من هذا القبيل وتعتبر ذلك من علامات التحضر والعصرية . بل أن بعض فقهاء الادارة المعاصرين يعتبرون ذلك فتحا جديدا فى ميدان الادارة ، ولكن الفكر الادارى الاسلامى كان سباقا فى هذا المجال . فلم تكن السن أبدا شرطا من شروط تولى الوظائف العامة فى النظام الاسلامى بل أن الشباب اذا توفرت فيهم الشروط والمؤهلات المطلوبة لتولى الأعمال ولو كانت هذه الأعمال قيادية فقد يفضلون على كبار السن لما يتميز به الشباب من الحيوية والقدرة وقد تولى شباب فى مقتبل العمر أعمالا خطيرة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتولى بعض الشباب مناصب قيادية ، وكان تحت قيادتهم كثير من الصحابة الأجلاء كبار السن ، وليس ادل على ذلك من تولية

الرسول – عليه الصلاة والسلام – لأسامة بن زيد قيادة الجيش الذى سمى بجيش أسامة ، وكان أسامة هذا شابا دون العشرين من العمر ، وقد أسند اليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – قيادة هذا الجيش وأمره أن يتجه الى منطقة الحدود الشمالية للجزيرة العربية للقيام بمهام محدودة ، وكان من الجنود الذين هم تحت قيادة أسامة بعض الصحابة الكبار مثل أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وقد شق ذلك على بعض الصحابة ، اذ كيف يتولى شاب صغير قيادة الجيش الذى يضم أجلاء الصحابة وتكلموا فى ذلك كثيرا وأبدوا عدم رضاهم عن اسناد القيادة الى هذا الشاب الصغير . ووصل حديثهم واعتراضهم الى سمع النبى – صلى الله عليه وسلم – فغضب جدا وقال فى حسم لا يقبل المناقشة (اتخذوا بعث أسامة لئن قلتم فى امارته لقد قلتم فى امارة أبيه من قبل وانه لخليق للامارة وان كان أبوه لخليقا بها) وقد شاءت ارادة الله أن ينتقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الى الرفيق الأعلى قبل أن يسير أسامة على رأس جيشه لتأدية المهمة التى كلفه بها – صلى الله عليه وسلم – ويتولى أبو بكر الصديق الخلافة وكانت مشكلة قيادة أسامة لهذا الجيش من أولى المشاكل التى واجهته ، فقد تجددت المعارضة مرة أخرى من جانب الذين أثاروا هذه المشكلة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم – ولكن أحدا لم يجرؤ على مناقشة أبى بكر فى هذه القضية ، فوسطوا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، لعله يقنع الخليفة بتغيير أسامة بقائد آخر أكبر سنا ، وفعلا كلم عمر أبا بكر وعرض عليه وجهة نظر المعارضين ، ولكن أبا بكر غضب جدا عندما سمع ذلك من عمر ، وثارت ثائرته وقال لعمر (ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله الرسول وتريد منى أن أعزله ، والله لو خطفنى الكلاب والذئاب فلن أرد قضاء قضى به رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاد عمر الى الذين وسطوه فسألوه عن نتيجة وساطته ، فقال لهم : (امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ) وهكذا أصر ابو بكر الصديق على تنفيذ تعليمات قائده الأعظم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك فى وقت عصيب كانت فيه بوادر حركة الردة فى الجزيرة العربية قد ظهرت ، والأخطار تحدق بالمسلمين فى المدينة وظن بعض قصار النظر من المسلمين أن ابعاد جيش اسامة عن المدينة فى هذا الوقت قد يكون عملا يجافى الحكمة والمنطق ، ولكن ابا بكر الذى أصبح مسئولا عن الأمة ومصيرها ومستقبلها كان أحكم منهم وأبعد نظرا ، وادراكا لهدف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الاصرار على تنفيذ مهمة هذا الجيش ، وفى ادراكه لتوفر شرائط القيادة الناجحة فى أسامة قائد الجيش . ومضى الجيش وسار أبو بكر الصديق يودع القائد الشاب وينصحه ويعطيه تعليماته الأخيرة . وكان أبو بكر ماشيا وأسامة راكبا فرسه ، وخجل القائد الشاب أن يكون هو راكبا فرسه والخليفة الشيخ الوقور ماشيا ، فقال فى أدب رفيع ياخليفة رسول الله لتركبن او لأنزلن ، ولكن الخليفة الورع رد عليه قائلا فى تواضع رائع، والله لا تنزل ووالله لا أركب ،وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ، هذا هو أدب الاسلام وسلوك المسلمين على أعلى مستوى من القيادة والمسئولية . ولما آن للخليفة أن يعود قال لأسامة قائد الجيش : أن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل وعمر كان جنديا من جنود أسامة وأبو بكر يريد أن يبقى عمر معه ليستعين برأيه فى ادارة أمور الدولة ولكنه لم يستبد ولم يأمر ، وانما يطلب فى أدب وتواضع ـ وهو الخليفة والقائد الأعلى ـ من القائد الشاب أن يعينه بعمر ان لم يكن لديه مانع ، ويوافق أسامة ويعود أبو بكر وعمر الى المدينة ويذهب أسامة وجيشه الى حيث كان أمره

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلا تعجب أيها القارىء الكريم ، ولا تحسب ذلك من الخيال ، بل هو حقيقة فهو الاسلام الذى اكتشف هؤلاء الرجال وكشف عن عبقرياتهم فى القيادة المثالية والادارية البارعة ، وهم الرجال الذين تربوا على يدى **محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ** وتدربوا فى مدرسته ، وهم الذين ألقى **الله تعالى** على كواهلهم نشر رسالة الاسلام وبسط سلطانه فى الأرض ، فلا تعجب أن يكون هذا سلوكهم ــ ولا تعجب اذا كان مبلغ نجاحهم فى مهماتهم أن وصل سلطان الله الى آفاق بعيدة فقد رفرفت راية الاسلام فيما بين أوربا والصين ، ورنت شعوب كثيرة لهذا الدين الذى يقوده هؤلاء الرجال ، وأذعنت لسلطان الدولة التى يدير شئونها هؤلاء الرجال .

فتكافؤ الفرص واتاحة المجال أمام الشباب ليشارك فى حمل المسئولية هو مبدأ اسلامى أصيل وعاه الفكر الادارى والاسلامى وانتفع به المسلمون وطبقوه لا فى مجال القيادة والادارة فقط ، بل حتى فى مجال الحوار والنقاش الهادىء فقد جاء وفد من الحجاز الى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وهو فى دمشق ، ولما دخل الوفد على الخليفة واستقر بهم المكان ، وقف شاب صغير لعله كان أصغر من فى الوفد سنا ، وقف يخاطب الخليفة ويشرح له المهمة التى جاؤا اليه من أجلها ، ولكن الخليفة نظر الى هذا الشاب فى استغراب ودهشة ، وقال له : يابنى فى قومك من هم أكبر منك سنا وأحق منك بالكلام . ولكن الشاب الذكى أجاب الخليفة فى سرعة بديهية ، يا أمير المؤمنين لو كانت العبرة بالسن لكان فى المسلمين كثيرون هم أكبر منك سنا وأولى بمقام الخلافة منك . فلم يجد الخليفة ما يقوله للشاب أمام هذا المنطق الشديد والحجة القوية ، فأعجب به وبذكائه ، وقال له : امض يا بنى فى حديثك .

ارأيت كيف ان الاسلام قد فتح الأبواب امام الشباب ليشاركوا بجهدهم المتوثب في ادارة أمور الدولة ، وكان سباقا في هذا المجال الذى يعتبره البعض من فتوحات علم الادارة الحديثة .

وتمضي عجلة الحياة ، وتتطور الدولة الاسلامية ، وينمو المجتمع الاسلامى ، وتتسع رقعة الدولة وتؤول الخلافة بعد ابى بكر الى عمر بن الخطاب عبقرى الادارة الاسلامية وواضع أسسها وقواعدها ، فيقدم لنا نموذجا فذا للقائد والحاكم والادارى المسلم الممتاز الذى يعز نظيره على اتساع التاريخ البشرى كله .

ويلتزم عمر رضى الله عنه ، فى ادارة شئون المسلمين التزاما صارما بمبدأ — وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب — فلم يكن عمر يعهد بأى عمل مهما كان كبيرا او صغيرا لاى انسان لاى اعتبار سوى الثقة والكفاءة والأمانة والقدرة على النهوض بالعمل خدمة لأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — التى كان يعتبر نفسه مسئولا مسئولية مباشرة عن كل عظيم وصغير من شئونها . وكان عمر رضى الله عنه قائدا رائعا وعظيما بأى مقياس فى ادارة شئون الدولة الاسلامية ، وبصفة خاصة فى تولية الرجال الوظائف العامة التى تحمى مصلحة الناس بطريقة مباشرة وكان عمر يتطلب شروطا فى تولية الوظائف تعتبر مثالية وأحرى بنا أن نسميها شروطا عمرية . فمن الشروط التى كانت ضرورية عند عمر فيمن يتولى الوظائف العامة : —

١ — **القوة** : والقوة هنا ليس المقصود بها فقط القوة البدنية، وانما مضاف اليها قوة معنوية وخلقية ، تظهر فى السلوك والتصرفات . ومما يؤثر عنه فى هذا المجال قوله : (انى لأتحرج أن استعمل الرجل وانا أجد اقوى منه) وكيف لا يطبق عمر هذا وقد تخرج فى مدرسة محمد —

صلى الله عليه وسلم — وكان يسمع قائده الاعلى — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول ما معناه : (من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد أصلح منه للمسلمين ، فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين).

٢ — الهيبة مع التواضع : كان عمر مع شدته فى محاسبة عماله وموظفيه ، يريد أن تكون لهم شخصيات قوية وهيبة تجلو عيون الناس حتى لا يتطاول عليهم احد ، وهذا مطلب عصرى فى رجال الادارة ، فهيبة المسئول مع تواضعه ضرورية ولازمة لسلامة الادارة ، ولم تكن الهيبة مطلوبة من وجهة نظر الاسلام للارهاب والتسلط على رقاب الناس ، وانما لتوفير النظام والانضباط اللذان بدونهما تصبح الأمور فوضى ، وقد طبق عمر هذا المبدأ على نفسه ليكون قدوة لرجاله الذين يعهد اليهم بادارة أمور المسلمين . فقد كان عمر يقسم مالا من أموال المسلمين بين الناس ، فازدحموا عليه ، وأقبل سعد ابن أبى وقاص فاتح العراق وبطل القادسية وخال رسول الله صلى الله عليه وسلم فزاحم الناس ولم ينتظر دوره كواحد منهم ، يعنى خرق النظام ، فلما وصل الى عمر علاه بالدرة ، اى ضربه بالعصا التى كانت تلازمه لتأديب الخارجين على النظام ، وقال لسعد : (أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك) هكذا يكون العدل وهكذا تكون المساواة بين النـاس .

ومع توفير الهيبة للموظفين كان عمر يشترط ان يكون ذلك مصحوبا بالتواضع حتى لا يتعالى الموظفون على الرعية ، فهم خدمة لهم وليسوا متسلطين عليهم . ومما يؤثر عن عمر فى هذا المجال قوله : (انى اريد ان أولى العمل الرجل الذى اذا كان فى القوم وليس أميرهم

كان كأنه أميرهم هيبة وقوة شخصية ــ واذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ــ تواضعا وأدبا وورعا) .

٣ ــ الرحمة بالناس : من الشروط التى كان يتطلبها عمر فى الوالى أن يكون رحيما مع الرعية ، خطب عمر فى الناس يوما فقال : (أيها الناس انى أشهدكم على أمراء الامصار ، انى والله لم أبعثهم الا ليفقهوا الناس فى دينهم ، ويقسموا عليهم فيئهم ، ويحكموا بينهم ــ بالعدل ــ فان اشكل عليهم شىء رفعوه الى) وخطب فى مناسبة أخرى فقال : (أيها الناس انى والله ما أبعث اليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن ابعثهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الى ، فوالذى نفسى بيده لا قصنه منه ، فقام عمرو بن العاص ــ والى مصر ــ فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من المسلمين واليا على رعيته فأدب بعضهم انك تقصه منه ، قال عمر أى والذى نفسى بيده لأقصنة منــــه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم) أين هذا الأسلوب من أساليب البطش والتنكيل بعباد الله ، ووضــعهم فى السجون والمعتقلات بالجملة مما رأيناه وشــاهدناه فى تاريخنا القريب .

الحكم الصالح والادارة الناجحة تخلق المجتمع الحر المتماسك . وقديما قال فيلسوف اليونان العظيم أرسطو لتلميذه الاسكندر المقدونى الفاتح والقائد العظيم : يا بنى ان الرعية ان استطاعت أن تقول استطاعت أن تفعل ، واياك أن تتسلط على رعيتك فانك بالبطش والقــوة والســلطان تستطيع أن تستولى على رقاب النــاس ، ولكن هيهــات أن تصل الى قلوبهم الا بالحب والمــودة

والعدل والسياسة المستقيمة ، قال ارسطو هذا الكلام لتلميـذه الاسـكندر ليعلمـه اصول الادارة السليمة والحكم الرشيد والسياسة السديدة .

والقصة التالية تصور لنا مدى حرص عمر على توفر عنصر الرحمة فى الولاة والعمال . فقد استدعى عمر رجلا ليعهد اليه بعمل ، وبينما الكاتب يكتب عهد الولاية وصل طفل من أولاد عمر ، فجلس فى حجر الخليفة ، وجعل الخليفة يلاطف الطفل ويلاعبه ويقبله ، فقال الرجل الذى سيتولى العمل : يا أمير المؤمنين لى عشرة أولاد مثله ما وفى أحد منهم منى ، فقال له عمر : وما ذنبى ان كان الله عز وجل قد نزع الرحمة من قلبك ، انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بخطاب الولاية فمزق ، ورفض ان يوليه العمل الذى كان سيعهد به اليه ، وقال : (اذا لم يرحم هذا أولاده فكيف يرحم الرعية) .

ومن المأثورات عن عمر فى هذا الباب قوله : لا يصلح لتولى الأعمـال الا اللين فى غير ضعف ، والقوى فى غير عنف . وقوله : من استعمل رجلا لمودة أو قرابة ، لا يحمله على استعماله الا ذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنـين) وقوله : (من استعمل رجلا فاجرا وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله) .

٤ — ومن الأمور التى كان عمر يحرص عليها فى توليه الأعمال العامة المبدأ الذى قرره النبى صلى الله عليه وسلم — وهو أن طالب الولاية لا يولى — فقد روى أن عمر استدعى رجلا ليعهد اليه بادارة عمل من الأعمال وقبل ان يتكلم عمر بادره الرجل بطلب الوظيفة ، وهنا عدل عمر عن رأيه ، وقال له : كنا أردناك لذلك ولكن من يطلب هذا العمل لا يعان عليه .

هذه اهم الشروط التى كان يحرص عليها عمر فيمن يعهد اليه بادارة أى عمل من أعمال المسلمين ، وهى شروط متى توفرت وتحققت كفلت صلاح احوال البلاد والعباد .

ومع أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يتميز بفراسة حادة وبصيرة نافذة فى معرفة الرجال ، الا انه لم يكن يطمئن لهذا وحده ، بل كان يضيف اليه استشارة ذوى الرأى والخبرة من الصحابة فيما يتعلق بتولية الأعمال والوظائف العامة .

سأل عمر بعض مستشاريه فى شخص يوليه قيادة جيش العراق ، وبينما هم يتشاورون ويستعرضون أسماء الرجال الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة ، اذ جاء عمر كتاب من سعد بن أبى وقاص ، وكان سعد عاملا على صدقات نجد ، يخبره فيه بأنه تخير له الف فارس ذوى نجدة ورأى ، وسمع الحاضرون ما جاء فى الكتاب ، وعمر يسألهم عمن يؤمره على الجيش ، عندئذ اجابوه وجدت الرجل يا أمير المؤمنين ، قال من ؟ قالوا : الأسد فى براثنه ، سعد بن أبى وقاص ، فوافقهم عمر على ذلك الاقتراح ، وعلى الفور ارسل الى سعد واستدعاه من نجد ، وأمره على جيش العراق ، وكان هذا اختيارا موقفا ، فقد كان سعد نعم القائد ، وقد فتح الله العراق على يديه ، وكان هذا من بركات الشورى بين أمير المؤمنين ورعيته.

وكانت الشورى طابع سلوك عمر فى ادارة أمور الدولة الاسلامية وتنظيم اجهزتها واقتصادها ، والتزام عمر بالتقاليد الادارية التى ارسى دعائمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو الذى كفل له النجاح العظيم فى خلق أداة حكومية صالحة ونشيطة وامينة ، فمساعدته على ضبط هذا الملك العريض وهذه المساحات الشاسعة من الأرض والاعداد الهائلة من

البشر ، وساعدته على تحقيق العـدل والمسـاواة بين هؤلاء البشر جميعاً .

يوم أن كانت هذه المبادىء تجد طريقها الى التطبيق فى واقع الحياة ، كان هناك مجتمع اسـلامى فاضل ، بل كانت الدولة الاسلامية هى أعظم دولة فى العـالم خلال العصور الوسطى . والحقيقة التى تؤكدها لنـا دراسـة التاريخ الاسلامى ، انه منذ بدأ خلفاء المسلمين وحكامهم يحيدون عن هذه المبادىء ، وبدات المحسوبية والوساطة واسناد الأعمال الخطيرة للأهل والأقرباء والمحاسيب لمجرد القرابة وحـدها ، دون مؤهلات اخرى ، ومنذ ان بدات المبـادىء الاسلاميـة تتراجع عن التطبيق فى واقع الحيـاة أمام المصالح والمطـامح الشخصية والحرص على تحقيق مكاسب خاصة على حساب المصلحة العامة . عندئذ بدات الدولة الاسـلامية تخطو أولى خطواتها على طريق التدهور والانحلال والضعف الذى لا زلنا نعانى منه حتى الآن ، واذا أرادت الأمة الاسلامية أن تعيـد سالف مجدها وقديم هيبتها فى العالم فليس هناك من سبيل سوى الرجوع الى مبادىء الاسلام وتطبيقها فى واقع حيـاة المسلمين ، فهى التى كفلت المجد والعظمة لأسلافنا ، وحققت لنا مركزا عالميا عظيما ، وهى وحدها القادرة على أن تحقق لنا مثل هذا المجد وهذه العظمة ، فهل نحن فاعلون ؟

إدارة الباب المفتوح

ان معظم مشاكل الحكم والادارة الآن ، بل معظم عللها وأمراضها ترجع الى احتجاب المسئولين وكبار الموظفين عن جماهير المواطنين من أصحاب المصالح والمشاكل واضاءة الأنوار الحمراء أمام أبواب المكاتب الفاخرة ، ايذانا بأن المسئول الكبير أو الموظف الخطير مشغول وليس لديه وقت لمقابلة أحد ، وبهذا تغلق الأبواب أمام أصحاب المصالح ، وتضيع جهودهم عبثا فى ايصال أصواتهم الى آذان المسئولين ، وقد استشرى هذا الداء ، داء احتجاب المسئولين عن الجماهير بصورة خطيرة . وهذه فى الحقيقة أكبر عقبة تقف فى طريق تقدم الأمم والشعوب وقد أدركت كثير من الدول مدى الضرر الذى يعود على الادارة من وراء سياسة غلق الأبواب فى وجه أصحاب المصالح واحتجاب المسئولين عنهم ، وبدأ التفكير فى انتهاج سياسة الباب المفتوح فى مجال الادارة بمعنى أنه يصبح فى امكان أصحاب المصالح من عامة جماهير الشعب الوصول الى المسئولين وعرض شكواهم ومطالبهم ، وهذا فى الحقيقة اتجاه طيب وبادرة خير ، ودليل على أن سياسة الباب المفتوح هى أجدى وأنفع للحاكم والمحكومين ، فالحاكم الذى تتاح له فرصة اللقاء مع جماهير الناس يسمع منهم ويناقشهم ويتعرف على أحوالهم فسوف يكون على صلة دائمة بهم ويحس بمشاكلهم ويعمل على حلها ، وهذا يدعم مركزه أمام الناس ويجعل تأييدهم له من القلب ، كما أنه من ناحية أخرى يجعل المواطنين يتعرفون على وجهة نظر الحاكم أو المسئول فى المشاكل التى يعانونها ولعلهم يكونون مبالغين فيها ، بل لعلهم يكونون مطالبين بأشياء يتعذر تنفيذها لسبب

أو لآخر ، وفى هذه الحالة يوضح لهم المسئولون ويزيلون كل لبس أو سوء تفاهم ، وفى كلتا الحالتين تكون النتيجة مرضية الحاكم والمحكومين على السواء ، وخلاصة القول ان انتهاج سياسة الباب المفتوح فى مجال الادارة يعتبر خيرا وبركة ومظهرا من مظاهر الحكم الصحيح ، والادارة الناجحة التى تضع نصب عينيها مصلحة الناس، والعمل على حل مشاكلهم .

وهنا يحق لنا أن نقول وحقائق التاريخ تؤيدنا ان سياسة الباب المفتوح فى مجال الادارة هى تقليد اسلامى من التقاليد الادارية التى أرسى دعائمها الفكر الادارى الاسلامى ، وهنا يحق لنا كذلك أن نقول أن هذا المبدأ مبدأ سياسة الباب المفتوح ، طبق فعلا فى واقع الحياة العملية فى ادارة الدولة الاسلامية ، ولم يكن مجرد شعار نظرى أو مبدأ خيالى ، وهذه هى عظمة الاسلام فمبادؤه وشعاراته دائما للتطبيق فى واقع الحياة وبصورة سليمة ، وليس للاستهلاك المحلى وتخدير أعصاب الناس أو اللعب بعقولهم .

ولقد مارس الفكر الادارى الاسلامى مبدأ سياسة الباب المفتوح فى ادارة شئون الدولة وشئون الرعية منذ عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمارس مهامه كرئيس للدولة الاسلامية من مسجده فى المدينة ، دون حجاب أو حراس أو أبواب مغلقة ، وكل صاحب حاجة أو صاحب مسألة يستطيع أن يصل الى النبى فى أى وقت ويعرض عليه حاجته ومشكلته ويناقشه فيها بحرية ودون خوف أو رهبة ، ويجد الجواب حاضرا ويخرج من عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو مطمئن القلب مرتاح البال ، لأن الانسان يستريح وتهدأ نفسه عندما يجد من يسمع منه مشكلته عندما يكون له مشكلة ، حتى لو لم يحل له هذه المشكلة ، فما بالك لو وجد المسئول عنه يفتح له قلبه ويصغى لحاجته ويعمل على حل مشاكله ، اذن سوف يشعر هذا

الانسان بأنه انسان حقا ، وبأن المسئولين عنه يسهرون على مصالحه ويعملون على حل مشاكله ومثل هذا الانسان يكون مواطنا صالحا فعلا يتفانى في حب وطنه والاخلاص لحكومته .

هكذا كان شأن الادارة فى عهد حكومة الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذى اتخذ المسجد مقرا له ولقد لعب المسجد دورا رئيسيا فى ادارة أمور الدولة الاسلامية فلم تكن رسالة المسجد مقصورة على أنه مكان للعبادة وتأدية الصلاة فقط بل فى المسجد كان النبى صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحى عن ربه سبحانه وتعالى ، وفى المسجد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقوم بتعليم أصحابه تعاليم دينهم وأوامر ربهم . وفى المسجد كان النبى صلى الله عليه وسلم يضع خطط الحروب ويدير شئونها ، ويعين القواد ، ويزودهم بتعليماته وتوصياته وتوجيهاته ، وفى المسجد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقضى بين الناس طبقا لشريعة الاسلام ، وفى المسجد كان النبى — صلى الله عليه وسلم يستقبل الفقراء والمبعوثين الاجانب ، وفى المسجد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعين الولاة والعمال والموظفين على الأقاليم والمناطق التى كان يفتحها المسلمون فالمسجد اذن كان مكانا لتلقى الوحى ، ووزارة دفاع لوضع خطط الحرب ومعهد أو جامعة للتعليم والتثقيف ، ومحكمة عليا ، ووزارة خارجية ، وباختصار فى المسجد كان يتم البت والتعرف فى كل شئون الدولة الاسلامية كبيرها وصغيرها وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم استمر الخلفاء الراشدون يسيرون على هدى هذه السياسة النبوية الرشيدة ويمارسون ادارة أمور الدولة الاسلامية من المسجد دون حجاب أو حراس . وبعد أن انتهى عهد الخلفاء الراشدين وانتقلت مقاليد الأمور فى الدولة الاسلامية الى بنى أمية ، وبعد حادثة

اغتيال الامام على بن أبى طالب فى المسجد عندئذ بدأ الخليفة الأموى بن أبى سفيان يفكر فى الاحتجاب عن الناس واتخـاذ الحجاب والحراس الذين يقفون على الأبواب خوفا من أن يتكرر معه ما حدث مع علي بن أبى طالب ، وبدأ معاوية يمارس مهمته كرئيس للدولة الاسلامية من خارج المسجد واتخذ له مقرا للحكم فى عاصمته دمشق ، ولكن رغم هذا التغيير وهذا التطور الذى طرأ على نظام ادارة أمور الدولة الاسلامية، وأسلوب تسيير شئونها الا أن تقليد سياسة الباب المفتوح ظل معمولا به ، ولكن فى الواقع بصورة مغايرة للصورة التى كان عليها الحال فى عهد حكومة النبى صلى الله عليه وسلم وحكومة الخلفاء الراشدين بحيث لم يعد فى امكان بعض الناس ان يصل الى الخليفة بسهولة ، ويعرض عليه مصلحته وشكايته ويناقشه فيها كما كان يحدث فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ولزيادة أعباء الحكم وكثرت مشاكل الدولة وتطور أجهزتها واحوالها لم يكن فى مقدور الخلفاء الأمويين مواجهة الناس والسماع لمطالبهم فى كل وقت ولكنهم كانوا يحرصون على تخصيص يوم أو يومين فى الأسبوع يجلس فيها الخليفة فى حلبة مفتوحة يسمع فيها لمطالب الناس ويبحث شكاواهم ويرد على استفساراتهم . ولقـد كان عبد الملك بن مروان يؤكد على الحاجب الذى يقف على بابه الا يغلق بابه أمام نوعيات معينة من الناس فى أى وقت .

وكان يقول لحاجبه (اياك أن تغلق بابى دون أربعة ، المؤذن للصلاة فأنه داعى الله ، وصاحب البريد فان تأخير البريد ساعة قد يؤدى إلى ضياع مجهود سنة ، وصاحب الطعام فان تأخير الطعام يفسده ، وطارق الليل فشىء ما أتى به ولو وجد خيرا لنام) .

واستمر هذا التقليد وهو سياسة الباب المفتوح فى خلال العصور الاسلامية التالية ولكن على نطاق ضيق ، حتى اذا بدأ الحكام المسلمين يتخلون عن هذه السياسية ، وبداو يحثون عن رغبتهم ، بدأت أمور الدولة تنتقل من ايديهم الى الحجاب وكبار الموظفين الذين اخذوا يستغلون مصالح الناس وحاجتهم وبدات الرشوة تنتشر وبدأ الفساد ينتشر وبدات الأحوال تسوء ، بل بدات تنتقل من سيء الى أسوء ، وكل هذا كان نتيجة لاحتجاب الحكام والمسئولين عن الشعب وغلق الباب دون أصحاب الحاجات ،والتخلى عن المبدأ الاسلامى الأصيل وهو فتح الابواب أمام أصحاب الحاجات . فالحكم والادارة فى النظام الاسلامى لخدمة الناس وحل مشاكلهم وتحقيق امنهم على يومهم وغدهم .

وهنا ينبغى لنا أن نقف وقفة عند فترة من فترات الحكم الاسلامى المثالى التى طبقت خلالها مبادىء الاسلام تطبيقا سليما ، وحرص فيها الحاكم المسلم على أن يقف دائما على مصالح الناس وما يعاونونه فى حياتهم اليومية حتى يستطيع العمل على حل المشاكل أولا بأول ليعرف الشباب المسلم مبادىء الاسلام فى صفاتها وجوهرها ويعرف انه عندما كانت هذه المبادىء تعرف طريقها الى التطبيق فى واقع الحياة كانت مشاكل الناس تحل أولا بأول ، وكانت كل مشكلة تنال ما تستحقه من الاهتمام وكان كل انسان يأخذ حقه بدون زيادة أو نقصان ويعرف الشباب المسلم كيف أن هذا الاسلوب فى الحكم والادارة قد حقق التوازن فى المجتمع ، بل كيف ان هذا الأسلوب قد ادى الى تكوين مجتمع أسلامى فاضل ومتكامل يسوده الحب والمودة والتعاون بين المواطنين جميعا ، مجتمع كادت الجريمة لا يكون لها وجود فكل انسان يحرص على اداء الواجب ، ويحرص على الا يأخذ أكثر من حقه فالحاكم الأعلى

للدولة كان نموذجا وكان قدوة طيبة ، وكان يطبق على نفسه أولا وعلى أسرته ما يطالب الناس بتطبيقه .

تلك الفترة التى ينبغى لنا أن نقف عندها هى فترة حكومة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كان عمر نموذجا ومثلا أعلى للحاكم المسلم الذى فهم أهداف الاسلام ومثله العليا وطبقها فى حكمــه فى حزم وعزيمة صادقة وحقق للأمــة الاســلامية فى عهدة الأمن والاستقرار والعدل الذى لم تعرفه البشرية من قبل .

فقد ادرك عمر بن الخطاب بفطرته وحسه الاســلامى المرهف ، وعبقريته الفذة فى الادارة ، أهمية ادارة أمور الدولة الاسلامية من خلال الباب المفتوح أمام كل الناس ، ليسهل عليهم الوصول الى الخلفية وعرض مصالحهم ومطالبهم عليه بطريقة مباشرة ،ليسهل عليه حل هذه المشاكل دونمعوقات.

وكانت هذه سياسة عمر ، واسلوبه فى الأداء الذى لم يحد عنه أبدا طوال عهده المبارك ، وكان الناس يفدون على عمر من شتى أقطار الدولة الاسلامية ، يستغيثون به من ظلم وقع عليهم ، أو يعرضونعليه مشكلة قصر الحاكم المحلى عندهم فى حلها ولقد وعى التاريخ الاسلامى كثيرا من الحالات التى كان أفراد الرعية فيها يجيئون الى عمر من بلاد بعيدة متحملين مشاق السفر ، كانوا يجيئون اليه وهو فى المدينة من مصر والعراق والشام ، ويسيرون هذه المسافات البعيدة مع ما فى السفر تلك الأيام من العناء والعذاب ولكنهم كانوا يتحملون ذلك من أجل عرض شكواهم على الخليفة وهم مؤمنون بأنهم سيجدون الخليفة هناك فى انتظــارهم يسمع منهم ويناقشهم وعنده العدل والانصاف لكل لظلوم .

فكان هذا يعوضهم عناء الرحلة وعذاب السفر .

ومن تلك الأمثلة التى وعاها لنا تاريخنا الاسلامى وفكرنا الادارى الاسلامى على عدالة عمر وأسلوبه فى انتهاج سياسة الباب المفتوح فى مجال الادارة ، من تلك الأمثلة حادثة المرأة المصرية القبطية التى جاءته من مصر تشكو اليه من ظلم وقع عليها من حاكم مصر عمرو بن العاص .

فقد كانت تلك المرأة تملك قطعة أرض بجوار مسجد عمرو بن العاص فى مصر وقد أراد عمرو بن العاص أن يأخذ قطعة الأرض من تلك المرأة لحاجة المسجد اليها وأراد عمرو ابن العاص أن يأخذها شراء ، أى أن يدفع ثمنها للمرأة ، ولكنها رفضت أن تبيع أرضها ، ويبدو أنها تعرضت لبعض الضغط لتتنازل عن أرضها ، ولكنها صممت على الرفض وسألت بعض الناس ، أليس فوق هذا الأمير أمير يمكن لنا أن نشكو اليه ، فأخبروها بأن هناك حاكما أعلى للدولة الاسلامية وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة فى الحجاز وهو رجل عادل ينصف المظلومين .

ولم تتردد المرأة فى الذهاب الى الخليفة فى المدينة لترى صدق هذا الكلام الذى سمعته عن عدل أمير المؤمنين وانصافه ، وأعدت عدة السفر وسافرت الى المدينة وتحملت عناء السفر ومشقات الطريق ، ووصلت الى المدينة وهناك سألت عن أمير المؤمنين ، فأشار لها بعض الناس عليه فرأت رجلا فى غاية البساطة والتواضع وهالها أن يكون الحاكم الأعلى للمسلمين على هذه الصورة البسيطة المتواضعة ، ولعلها لم تصدق عينيها ، فهى التى عاصرت ورأت بعينيها حكام البيزنطين فى مصر والأبهة والعظمة التى كانوا يعيشون فيها ورأت الا مقارنة بين هذه الصورة البسيطة التى رأت عليها عمر وبين الصورة القديمة التى كانت مرسية فى ذهنها

عن أبهة رجال الحكم البيزنطيين ، بل أن أمير المؤمنين اكثر تواضعا وبساطة من عامله على مصر عمرو بن العاص ، اخذت المرأة تفكر في هذا كله ولعلها ترددت في عرض شكواها ومظلمتها على أمير المؤمنين ولكنها أخيرا قررت أن تجرب وهى لن تخسر شيئا ، واقتربت من أمير المؤمنين وقصت عليه قصتها فأطرق الخليفة وفكر لحظة ولم يزد على أن تناول قطعة من الرقاع وكتب عليها العبارات التالية : (من امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، نحن أولى بالعدل من كسرى) وأعطى عمر هذه الرسالة للمرأة فتناولتها منه ولكن هذا التصرف زادها حيرة على حيرتها ، اهذا هو الانصاف والعدل الذى جاءت من اجله وتجشمت في سبيله هذه المتاعب وهل صحيح أن هذا الرجل البسيط المتواضع له سلطان على عمرو بن العاص حاكم مصر ؟ وهل هذا الحاكم مصغ لكل هذه الرسالة المتواضعة وهذه العبارة التى تضمنتها الرسالة ما معناها .

عادت المرأة الى مصر ومعها هذه الرسالة وذهبت الى عمرو بن العاص في مقر حكمه وسلمته رسالة الخليفة وكاد عقلها يطير من رأسها عندما رأت عمرو بن العاص يتناول منها رسالة أمير المؤمنين في احترام بالغ ويقبلها ويضعها على رأسه ويقول : (سمعا وطاعة لأمير المؤمنين) وقال للمرأة في ادب واحترام : (أمامك أرضك فخذيها) واذهل المرأة هذا الموقف وزاد من دهشتها ولم تكد تصدق ولكن الرجل يتكلم في صراحة ووضوح وصدق ، وعندئذ قالت أفي الاسلام مثل هذه الأخلاق وهذه المبادىء وهذا العدل والانصاف وهذا النظام والطاعة لأوامر أمير المؤمنين ؟ اما والأمر كذلك ، كأنى اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وقطعة الأرض هذه هدية منى الى بيت الله .

ارايت العـدل والانصاف والخـير والأمن الذى تحققـه سياسة الباب المفتوح ، فمن الذى كان سيسمع شكوى هذه المراة وينصفها لو أن أمير المؤمنين كان يحتجب عن النـــاس ويغلق بابه دونهم . وارايت النتيجـــة التى ادت اليها هذه السياسة ولكنـه الاسلام وعدل الاسلام وسماحة الاســلام وكفى .

واليك قصة آخرى من مصر أيضا وهى قصـة مشهورة لدى جمهرة المؤرخين على نطاق العالم كله ، فقد كان فى مصر ميدان لسباق الخيل ، وحدث أن تسابق محمد بن عمرو بن العاص مع أحـد المصريين ، فسبق فرس المصرى فرس ابن الأمير ، وعندئذ غضب ابن الأمير غضبا شـــديدا ، اذ كيف يسبقه واحد من عامة الشعب وهو ابن الوالى ، وانهال على المصرى ضربا بسوط كان معه وهو يقول : خـــذها وانا ابن الاكرمين وشكا المصرى الى عمرو بن العاص ولكنه لم ينصفه وهددوه بالسجن ان هو شكا لأمير المؤمنين ، ولكن سمعة أمير المؤمنين فى العدل والانصاف جعلت المصرى لم يرهب تهديد عمرو بن العاص ، فما دام عمر بن الخطـــاب موجود ، فلن يجرؤ عمرو بن العاص ولا غيره على الحاق الظلم به بشرط أن يعرف أمير المؤمنين المظالم اولا بأول .

ويذهب الرجل المصرى الى عمر بن الخطاب فى المدينة ، ويشكو اليه ما حدث معه من عمرو بن العاص وابنـــه ، وعلى الفور أرسل عمر بن الخطـــاب مبعوثا من عنـــده الى مصر يستدعى عمرو بن العاص وابنه ، للمحاكمة ووصل عمرو بن العاص وابنه الى المدينة اذعانا لأوامر الخليفة ، ولم يكن له بد من أن يذهب الى الخليفة ، فلم يكن هو أو غيره يجرؤ على عصيان أوامر الخليفة الحازم ، وهنـاك فى مدينة الرســول

– صلى الله عليـــه وسلم – وفى مسجده حدثت المحاكمـــة التاريخية المشهورة ، بين المصرى وعمرو بن العاص وابنه ، وتأكد أمير المؤمنين من صحة مظلمة المصرى، فلم يكن عمرو بن العاص يقادر على أن يخفى عن أمير المؤمنين حقيقـة الموقف ولم يكن يستطيع أن يخدعه ، وبعد ثبوت التهمة ناول عمر بن الخطاب عصاه للمصرى وقال له أضرب بهـــا ابن الأكرمين فضرب المصرى ابن عمرو بن العاص حتى اقتصى منه لنفسه والخليفة يستزيده ويقول له : أضرب ابن الأكرمين ثم التفت الخليفة الى المصرى وقال له : اجعل العصا على صلعة عمرو ابن العاص فوالله ما ضربك ابنه الا بفضل سـلطانه ، ولكن المصرى قال : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى . فقال له عمر بن الخطاب والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه . ثم التفت الخليفة الى عمرو بن العاص وقال له : قولتـــه المشـــهورة التى لا زالت تدوى فى سمع الزمن وسـطرها التاريخ الاســـلامى بحروف من نور كدليل على الحرية التى حققها الاسلام للبشر قال الخليفة : يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . وقال الخليفة للمصرى – وعمرو بن العاص وابنه يسمعان – انصرف راشدا فان رابك وجب فاكتب لى :

أى عدل هذا وأى أسلوب فى ادارة أمور النـــاس ؟ أمير المؤمنين يهتم هذا الاهتمام بمثل هذه الأمور البسيطة ولكنها فى نظر عمر بن الخطـــاب لم تكن بسيطة بل كانت فى غـاية الأهمية ، فهى تتعلق بحريات الناس وحقهم فى الحياة الذى يجب أن يصونه لهم الاسلام ، الذى لا يفرق بين كبير وصغير ، ولا بين أمير ومواطن عادى ، فالكل فى نظر الاسلام سواء .

وهذا الأسلوب الذى التزمه عمر بن الخطـــاب فى ادارة

شؤون الدولة الاسلامية وهو اسلوب الباب المفتوح ، قد الزم به عماله وموظفيه وكل العاملين معه فى أجهزة الدولة المختلفة، الزمهم به الزاما صـــادقا ، فلم يكن يغفر أبدا لأن عامل من عماله أو موظف من موظفيه أن يغلق بابه أمام الناس ويحتجب عنهم . وكان من الأمور ذات الأهمية القصوى فى تفكير عمـــر أسلوبه الادارى أن يكون الحاكم دائما مع الناس يسمع منهم ويستمع الى شكواهم ومطالبهم ويعمل على قضـــاء حوائجهم وحل مشكلاتهم بل أكثر من ذلك فان عمر كان يطلب من عماله وموظفيـــــه أن يواسو مواطنيهم فيمـــا يحل بهم من أزمات ومصائب ، وأن يجاملوهم فى المناســـبات ، ويعودون المريض منهم ، ويسألون عن الغائب ، أى ان عمر كان يريد من الحاكم أن يكون رب أسرة بالنســـــبة لمواطنيه يعطف عليهم ويتفقد احوالهم ويهتم بشؤونهم كما يفعل مع أسرته تماما بتمام وهذا هو الفهم السليم لنظـــام الحكم الاســـلامى ولأهداف الادارة الرشيدة فى الاسلام فالاسلام يعتبر المسلمين اسرة واحدة ، بل يعتبرهم جسدا واحدا ، وهذا هو حديث المصطفى عليـــه الصلاة والســـــلام يعبر عن هذه الرابطـــــة التى تربط بين المسلمين فيقول (مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والســــــهر) هذا هو الاسلام وهذه هى مبادئه ، وهذه هى ادارته التى لا هدف لها الا اســـــعاد الناس وحل مشاكلهم وحفظ كرامتهم .

ترسخت هذه القاعدة الادارية الرشـــــيدة فى تفكير عمر الادارى . وأصبح يؤمن بها ايمانا لا يتزعزع ، وملكت عليه كل مشاعره ، ولما كان عمر يعتبر نفسه مسئولا مسئولية مباشرة عن كل كبيرة وصغيرة من أمور أمة محمد ، ومسئولا عن كل انسان مهما بعد عنه ، أليس هو القائل : (والله لو ضاع عقال

بشط العراق كنت مســئولا عنه امام الله) وعمر كان يعتبر نفســه مســئولا ليس فقط عن البشر ، ولكن حتى عن الحيوانات العجماوات ولقد روى عنه ما معنـاه : (لو تعثر بعير فى احد الطرق لكنت مســئولا عن ذلك امام الله لماذا لم أمهـد له الطريق) ؟ أى لماذا لم امهـد الطريق واصلحها . احســاس بالمســئولية يفـوق الوصف ، وخوف من الله واحساس مرهف بأنه مطلع عليه ويراه ويراقبـه ، وايمـان راسخ بأن الحكم امانة وخدمة للناس ، وليس مغنما شخصيا أو تسلطا ، هذا الاحساس بالمسئولية ، وهذا الايمان بأهمية انتهاج سياسة الباب المفتوح فى ادارة امور الدولة والناس ، جعل عمر لا يقبل ـ كما اشرنا آنفا من من موظف او عامل من العاملين معه ، لا يقبل منه ان يغلق بابه فى وجه النـاس أو يحتجب عنهم . وكان لعمر اسلوب فذ فى تفقد احوال عمـاله وموظفيه والسؤال عنهم باستمرار ، وكان أشـد ما يضايقه ويثير غضبه اذا سأل عن عامل أو موظف وعرف انه يغلق بابه فى وجه الناس ، ويحتجب عنهم ، عندئذ يثور ثورة الأسـد والويل لهذا الذى يحتجب عن الناس .

والأمثلة على هذا الأســلوب العمرى فى الادارة كثيرة وتفوق الحصر ، من ذلك ما روى أن سعد بن أبى وقاص بطل القادســية وقاهر جيوش الفرس قد بنى له دارا فخمة فى الكوفة واتخذ هذه الدار قصر للأمارة يباشر منه مهامه كحاكم للاقليم ، وجعل فوق هذا القصر ظله يحتجب فيها عن أصوات الناس ، ويقال أن سعد قد أصدر تعليماته للمعماريين الذين أشرفوا على بنـاء هذا القصر أن يأخـذوا فى اعتبارهم ابعـاد أصوات الناس عن سمعه ، وبلغ عمر هذا الذى صنعه سعد ابن أبى وقاص فى قصره الذى أطلق الناس عليه بالفعل قصر

سعد . غضب عمر أشد الغضب لأن هـذا يخالف منهجه فى الادارة الذى هو فى نفس الوقت منهج الاسـلام الصحيح ــ وهو أ نيكون الحاكم دائما مع الناس ، وبابه مفتوح أمامهم ، وعلى الفور كلف عمر محمد بن مسلمة ، الذى كان مستشاره الخاص وسـاعده الأيمن ، وموضع سره الأمين ، فى تعقب تصرفات كبار الموظفين وتقديم تقارير للخليفة عن سـلوكهم وأسلوبهم فى معاملة الناس ، كلف عمر محمد بن مسلمة هذا ليحقق فى هذه القضية ، وكانت تعليمـات عمر الى محمد بن مسلمة فى غاية الوضوح والصرامة والحزم ، وكان محمد بن مسلمة مفوضا من الخليفة أن يحرق باب قصر سـعد بن أبى وقاص ان وجد ما وصله عنه صحيحا ــ فقال له : (أعمد الى قصر سعد بالكوفة حتى تحرق بابه ثم أرجع عودك على بدئك) وسافر مبعوث الخليفة الى الكوفة وطلب مقابلة سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة ، ولكن سعد طلب من مبعوث الخليفة أن يحضر الى قصره ، ولكن المبعوث رفض دخول قصر سـعد ، فلم يكن لسـعد بد من أن يخرج لمقـابلة مبعوث الخليفة ، وحاول أن يسلك معـه سـلوكا لا يتناسب مع أخلاقيـات المستشار الخاص لعمر بن الخطـاب فهو حاول أن يستدعيه الى قصره للتفاهم معه ، ولكن الرجل رفض ، فحاول سـعد أن يستميله ببعض المال الذى يعينه على نفقات الطريق ، أى أراد أن يقدم رشوة لمحمد بن مسلمة ، لأنه يعرف الهدف من هذه المهمة التى كلفه بها الخليفـة ، ويعرف الصراحـة التى عوده عليها عمر هو وأمثاله ولكن محمد بن مسلمة لا يمكن أن يخيب ظن عمر فيه ، ولا يمكن أن يخون الأمـانة ، أمانة كونه مستشارا للخليفة وسـاعده الأيمن ، ويرفض ابن مسلمـة رفضا حاسما أن يأخذ شيئا من سعد ولم يزد على دفع الى سعد رسـالة الخليفة اليه ، ويقرأ سعد الرسالة فاذا فيهـا بعد الديبـاجة (بلغنى أنك بنيت قصرا اتخـذته حصـنا ،

ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس بابا ، انه ليس بقصرك ، ولكنه قصر الخيال ، أنزل منه منزلا مما يلى ببيوت الأموال وأغلقه ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت) هذه هى الأوامر الصارمة التى تضمنتها رسالة عمر بن الخطاب الى أمير الكوفة سعد ابن أبى وقاص ولم يكن أمام سعد تلك الشخصية الكبيرة والذى كان المسلمون يسمونه قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يكن أمام بطل القادسية سوى الاذعان لأوامر الخليفة الذى لم تكن تأخذه فى الحق لومة لائم ، والذى كانت مصلحة الأمة عنده فوق كل اعتبار وفوق كل الأشخاص ، مهما كان شأنهم وخطرهم ، نفذ سعد كل تعليمات الخليفة ، ولم يطمئن عمر الا بعد أن عاد اليه محمد بن مسلمة وبلغه اذعان سعد لكل أوامره .

بمثل هذه الروح وهذا الحزم كان عمر بن الخطاب يدير شؤون أمة محمد ، وكان يريد من عماله وموظفيه أن يكونوا صورة منه .

ولقد أدرك عامة المسلمين هذه الخاصية من خصائص خليفتهم العظيم فى الحكم والادارة ، وسرت فى أرواحهم روح عمر ، وملأت الشجاعة قلوبهم ، فلم يكونوا يترددون لحظة فى تبليغ الخليفة بأى انحراف عن المنهج العمرى والسلوك العمرى ، وأى شىء يخافه الناس وعمر موجود وعقابه يقف بالمرصاد للعابثين ، وكان عمر يسأل كل وفد يصل اليه فى المدينة من أى قطر من الأقطار عن أميرهم وعن سلوكه معهم ، وكان أول سؤال يسأله عمر عن الأمراء هل يحتجبون عن الناس ، أو يظهرون لهم فى كل وقت وحين كان هذا أهم شىء فى نظر عمر وهو أهم شىء فى نظر أى ادارى ناجح وأى حاكم حريص على مصلحة شعبه ، وعلى قضاء مصالح الناس .

جاء وفد من أهل حمص بالشـــام الى عمر بن الخطـــاب بالمدينة ، فسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم ، وعن أميرهم وسلوكه معهم وكان أول سؤال عن الأمير هل يحتجب عنكم أو يظهر لكم ؟ عندئذ شكى اليه الوفد أن أميرهم عبد الله بن قرط يحتجب عنهم ، وعلى الفور أرسل عمر من المدينة من أحضر له عبد الله بن قرط من الشـــام ، ولما وصل والى حمص الى المدينة قال عمر بن الخطـــاب : (أحبسوه عنى فى الشمس ثلاثة أيام ، حتى اذا كان اليـــوم الرابع استحضره وقال له :

يا ابن قرط الحقنى الى الحـــرة ـ وكان فيها أبل وغنم من أموال الصدقة ـ حتى اذا جاءه بالحرة ألقى عليه جبة وقال أخلع ثيابك واتزر بهـــذه ثم ناوله دلوا وقال له أسق هـــذه الأبل ، ففعل الأمير كما أمره الخليفة ، وظل يعمل حتى أدركه التعب قال له الخليفة يا ابن قرط متى كان عهدك بهذا ؟ ـ أى متى كان عهدك بالاحتجاب عن الناس ـ قال مليا ـ أى منـــذ عهد بعيد ـ قال له : فلهذا بنيت لك علية أشرفت بهـــا على الناس ، وأحتجبت عن المسلمين والأرملة والمسكين ارجع الى عملك ولا تعـــد . أى عـــد الى ولايتك واياك أن تحتجب عن الناس ، هذا درس قاس من دروس الادارة العمرية الرشيدة أن هذه الأمثلة غنية عن التعليق ، فأى خير وبركة تعود على الشعب لو أن حـــكام هذا الزمان أخذوا بهذه الأســـاليب العمرية فى الادارة ، وفتحوا أبوابهم أمام النـــاس ، وواجهوا مشاكلهم أولا بأول ، وبذلوا جهدهم فى حلهـــا بدلا من ضياع الوقت فى المظهريات ، والهاء الشعب بالخطب الرنانة والوعود الجوفاء ، التى ملها النـــاس ولم يعودوا يصدقونها لكثرة تردادها وعدم جدواها .

ومالنا لا نرجع الى سياسة الباب المفتوح التى شرعها لنا الاسلام وأرسى دعائمها الفكر الادارى الاسلامى ، وطبقهـــا الحاكم المسلم ، وأدرك أهميتها وجدواها ، وظهرت نتائجها

الطيبة ، وعمت خيراتها وبركاتها البلاد والعباد ، ولا تظن أن المسئولين تغيب عنهم جدوى هذا الأسلوب وما يمكن أن يدخله فى الادارة من ثورة ادارية حقيقية ، وما يمكن أن يؤدى اليه من انجاز الأمور وحل المشاكل حلا جذريا بدلا من الترقيع الذى لا يلبث أن يتمزق ، والترميم الذى لا يلبث أن يعود حطاما كما كان .

ولكن مصيبتنا أننا أصبنا بداء البيروقراطية والروتين القاتل المعوق ، الذى كاد أن يتلف أعصاب الناس ويهد قواهم .

والفنا التسويف فى مواجهة المشاكل وحلها حتى تراكمت علينا واكثرت كثرة هائلة واستعصت على الحل ـ واتسع الخرق على الراقع كما يقولون ـ وحرص الفكر الادارى والاسلامى على تطبيق سياسة الباب المفتوح فى ادارة أمور الدولة والرعية ، واشتداد عمر بن الخطاب وصرامته فى الالتزام بهذا المنهج والزام عماله وموظفيه به لم يكن تزمتا ، ولكن كان ادراكا أن سياسة الباب المفتوح خير وسيلة لانجاز مصالح الناس وقضاء مصالحهم واراحة أعصابهم واشعارهم بالأمن على اليوم والغد والمستقبل وتلك هى أهم أهداف نظام الحكم الاسلامى وكان عمر يدرك أن احتجاب الأمراء وكبار الموظفين عن الناس فضلا عن أنه يعطل مصالح الناس فانه يؤدى الى أمر آخر خطير وهو خمول صغار الموظفين وكسلهم وتهاونهم فى مصالح الناس ، لانه طالما أن الرؤساء لا يضربون المثل ويكونون قدوة طيبة لمرؤسيهم فاننا لا يمكن أن ننتظر خيرا من هؤلاء المرؤسين .

وكان لعمر أسلوبا فذا فى العمل على انجاز الصالح والبت فى الأمور ، فنحن فى هذا العصر الحديث نعجب جدا بالدول المتحضرة التى تعرف قيمة الوقت وتحرص عليه وتستفيد منه ولا تجعله يفلت من يديها ، ولكن نغفل عن هذه الحقيقة

التاريخية الهامة التي وعاها لنا الفكر الاداري الاسلامي وهي أن عمر بن الخطاب كان يقول لعماله وموظفيه منذ أربعة عشر قرنا : (لا تؤخروا عمل اليوم الى الغد فتتكاثر عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدؤون) انه ادراك سليم لقيمـــة الوقت ، ومحاولة الاستفادة منه قبل أن يفلت من أيدينا .

ولكن ما أرخص الوقت عنـــدنا فى هذه الأيام فكم من أيام وشهور بل وسنين تمر دون أن تستفيد منهـــا وكم من فرص تفوت دون أن نغتنمها . فاذا كان ابن الخطاب منذ أربعة عشر قرنا ــ وحين كانت مصالح الناس بسيطة ومشاكلهم سهلة ــ قد أدرك هذه الحقيقة فما أحرانا نحن فى هذا العصر المعقـــد الذى تشابكت فيه المصالح وتداخلت فيه المشاكل حتى كادت أن تأخذ بخناقنا ، ما أحوجنـــا فى هذا العصر أن ندرك هـــذه الحقيقة وأن نعرف قيمة الوقت ونستفيد منه لأنه ليس سرا الآن أن أكثر الدول تقدما ورخاء هى الدول التى تعرف قيمة الوقت وتحرص على الاستفادة منه .

وبعد . لقد جربنـــا سياسة الأبواب المغلقـــة والأنوار الحمراء والاحتجاب عن الناس وذقنا من جرائهـــا الأمرين وسرت موجة من اللامبالاة فى كثير من أجهزتنـــا ومؤسساتنا وكثير من موظفينا وأصبحت عبارات فوت علينا بكره ــ أو بعد أسبوع أو لسه ماجاش ، أو شوف عند زميلى فى الأوضه الى جنبى أو الخ . أصبحت هذه العبارات مألوفة فى حياتنـــا بل أصبح كل صاحب مصلحـــة ينتظر أن يسمعها فى كل مكان أو أصبح قضاء أية مصلحة مهما كانت تافهة يعتبر مشوار عذاب ومن لا يصدق عليه أن يذهب الى أى مكتب من مكاتب السجل المدنى ليستخرج شـــهادة ميلاد أو بطاقة شخصية أو يذهب الى مكتب تموين ليستخرج بطـــاقة تموين أو يتعـــامل مع ما يسمى مصلحة الجمارك ليتفرج على العذاب الذى يعانيـــه الناس وعلى الوقت الذى يضيع دون مبرر معقول .

لقد جربنا قفل الأبواب واهدار قيمة الوقت فهل لنا أن نجرب سياسة الباب المفتوح وهل لنا أن ندرك قيمة الوقت وكل انسان على يقين أن النتائج سوف تكون طيبة لأبعد الحدود وسوف تعم الخيرات والبركات كل الشعب .

والمشكلة أننا كلنا نشترك فى تعذيب بعضنا ونضع العقبات أمام بعضنا لأن المسئول أو الموظف الذى يعقد مشاكل الناس هنا وهناك بالتأكيد هو سوف يكون له مصلحة فى جهة أو أخرى ويعانى من التعقيد والانتظار فلماذا لا نتعظ ونحس باحساس الناس . أم أن العملية انتقام يعنى من يتعرض لأى لون من ألوان الاهمال أو الانتظار او الخ . فانه يحاول أن ينتقم بعد ذلك من مواطن برىء يكون له عنده مصلحة .

فرحمة بالشعب ورحمة بأعصاب الناس أيها المسئولون الكبار اضربوا المثل الطيب وكونوا نماذج صالحة للموظفين الصغار حتى يكونوا هم فى خدمة الناس ، وكان الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه . ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة كما يقول النبى — صلى الله عليه وسلم — يعنى من يعمل على حل أزمات الناس يكون موظفا أمينا يؤدى واجبه فى اخلاص وليس فقط يكون مستحقا للأجر الذى يتقاضاه عن هذا العمل بل أن الله تعالى يكافئه عن ذلك يوم القيامة لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

الـرقابـة والمتـابعـة

الناس بشر يخطئون ويصيبون ، ومهما كانت عـدالة التشريع وقوة المبادىء ومثاليتها فلابد من المتابعة والمراقبة والمساءلة للقائمين على تنفيـذ وتطبيق التشريعات والقوانين والمبادىء ، لانه بدون المتابعة والمراقبـة والمساءلة والجزاء عقابا وثوابا بدون هذا كله تصبح المبادىء والتشريعات أشياء خيالية تعيش فى اذهان الناس ومخيلاتهم دون أن تنفـذ فى واقع الحياة أو تصبح كالخطب المنبرية والمواعظ .

وما أكثر المبادىء السليمة والقوانين العادلة فى حياتنـا التى يعبث بها القائمون على تنفيذها بسبب غياب المتابعـة اليقظة والمراقبة الدقيقـة ، وبسبب التساهل والتهـاون فى مجازاة من يخطىء أو يتجاوز حـدود القوانين والتشريعات وكل هذا يؤدى الى خلل فى الادارة والى الفسـاد فى أجهزة الدولة المختلفة .

والمتابعة والمراقبة والمساءلة والجزاء عقـابا وثوابا أشياء لابد منها لضمان حسن سير الادارة فى أى مجتمع . وهـذه الأشياء كانت موضع اهتمـام كبير من رجال الادارة المسلمين الأوائل الذين وضـعوا أسس أجهـزة ومؤسسات الدولة الاسلاميـة . ووضعوا قواعدها وأحوالهـا الادارية وبصفة خاصة من جانب عمر بن الخطاب الذى ساهم بالجزء الأكبر فى تأكيد المبـادىء والأفكار الادارية التى قامت عليهـا دولة الاسـلام .

فكما سبق ان رأينا كيف اهتم عمر بن الخطاب بتطبيق مبـادىء وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وتحقيق

تكافؤ الفرص بين المواطنين جميعا وانتهاج سياسة الباب المفتوح فى ادارة أمور المسلمين ، وعدم اغلاق الأبواب ، ووضع أى عقبات أمام أى انسان ليصل الى الخليفة وعرض حاجته وشكواه ، كما اهتم عمر اهتماما شديد بهذه الأشياء التى وضع قواعدها قائده الأعلى محمد عليه الصلاة والسلام . وسار عليها الخليفة الأول أبو بكر الصديق .

فان عمر بن الخطاب اهتم كذلك بأمور على جانب كبير من الأهمية والخطورة فى ادارة الدولة الاسلامية من تلك الأمور أسلوبه الحازم والدقيق فى المحاسبة والمراقبة وتوقيع العقاب على من يخطىء ، وكذلك اثابة من يحسن ويؤدى عمله على الوجه الأكمل وكان كل الولاة والعمال والموظفين الذين يعينهم عمر لادارة أمور الدولة الاسلامية كانوا يخضعون لمراقبة دقيقة ومتابعة أمينة من جانب الخليفة ولقد كان لعمر ابن الخطاب رجال ثقاه اختيارهم بعناية فائقة وعهد اليهم مهمة مراقبة العمال والموظفين ومتابعتهم وتقديم تقارير دائمة الى الخليفة ليكون على علم تام بكل شىء فى الدولة الاسلامية .

ولم يكتف عمر بن الخطاب لفرط حساسيته واحساسه بمسئولية عن الأمة الاسلامية بأن جعل من الأمة كلها رقيبا على تصرفات العمال والموظفين وسلوكهم بحيث كان يحرص فى كل خطبه العامة أن يذكر الأمة بأنه لم يبعث العمال والموظفين ليضربوا أبشار الناس ويستعبدونهم ويمنعونهم حقوقهم وانما بعثهم اليهم ليعلمونهم أمور الدين ويحكموا بينهم بالعدل ويؤدوا اليهم حقوقهم ولم يكتف عمر بتذكير المسلمين دائما بأنهم أصحاب حق فى مراقبة العمال والموظفين وملاحظة سلوكهم وتصرفاتهم وتبليغه بكل خطأ أو عبث أو تجاوز لمبادىء الاسلام وتشريعاته وبابه مفتوح دائما وعقله وقلبه مفتوحا كذلك لسماع أية شكوى أو مظلمة ترفع اليه ،

وعقابه صارم لكل مخطىء أو عابث لم يكتف عمر بكل هـذا ، بل كان له جهاز رقابة ومتابعة على أعلى درجة من اليقظـة والأمانة والدين والأخلاق ، وكان أفراد هذا الجهاز مبعوثين فى أرجاء الدولة الاسلامية ، ومهمتهم محددة وهى متابعـة كبار الموظفين ومراقبة كل تصرفاتهم وارسـال تقارير دورية للخليفة بكل صغيرة وكبيرة ، بحيث كان الخليفـة يعرف كل شىء عن كل واحد من كبـار الولاة والعمال وأغلب الظن أن الولاة والعمال كانوا يعرفون ذلك ، مما جعلهم يجتهـدون فى أعمالهم والحرص على تطبيق شريعة الاسـلام بين المواطنين ، والحرص على تنفيذ وصايا عمر وتوجيهـاته ، التى كانت تهدف الى وضع الادارة بل ونظام الحكم الاسـلامى كله فى موضعه الصحيح وهو خدمة الأمة الاسلامية . ولم يكن رجال عمر الذين اختارهم للقيام بمهمة المراقبـة والمتابعـة من نوع الرجال الذين يمكن خديعتهم أو شراء ضـمائرهم ولم يكونوا من ذلك النـوع الذى يمكن أن يعمل على تحقيق مصـالح شخصية أو منافع ذاتية على حساب مصلحة الأمة وسبق أن أشرنا الى قصة محمد بن مسلمة عندما حاول سـعد بن أبى وقاص أن يستعيله وأراد أن يقدم له بعض المال ليستعين به على نفقات الطريق وكان محمد بن مسلمة مكلفـا من قبل الخليفة عمر بالتحقيق فى أمور نسبت الى سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة وكان عمر يرى أن هذه الأمور تخالف منهجـه فى الحكم ، عندئذ رفض محمد بن مسلمة أن يأخذ شـيئا من سعد بن أبى وقاص ، بل رفض مجرد الذهاب الى قصر الأمير سعد . لذلك كانت تقارير رجال عمـر التى كانت ترسل الى الخليفة كلها سـليمة وصحيحة لا يعرف التزوير أو التلفيق اليها سـبيلا ولم تكن متخذة لكيد لبعض النـاس وتشويه سمعتهم والحط من شـأنهم بل كانت تحرص على تسجيل حسنات وسيئات موظف أو عامل فى أمانة ودقة بالغة .

لأن عمر كان يختار رجاله الذين يعملون معه ـ خصوصا رجال المراقبة والمتابعة ـ بعناية وبعد اختبارات كبيرة .

ولقد كان عمر يحرص على أن يلتقى بأكبر عدد من المسلمين يسمع منهم ويتحدث اليهم حتى تكتمل فى ذهنه صورة المجتمع الاسلامى الذى هو مسئول عنه وحتى يكون على علم تام بمتاعب الناس ومشاكلهم ليعمل على حلها وكانت من أمنيات عمر الغالية أن تمكنه الظروف من أن يطوف بأقطار الدولة الاسلامية ويزورها بنفسه ويلتقى بالناس على أرض الواقع ليعرف أحوالهم وروى عنه فى أخريات أيامه انه قال : لو عشت الى قابل لأزورن الأقاليم الاسلامية فأقضى فى كل اقليم شهرين أقضى فى مصر شهرين وفى الشام شهرين وفى العراق شهرين الخ ... وقال والله لنعم الحول هذا ، أى أن عمر كان يعتبر قضاء عام كامل فى تفقد أحوال الرعية على الطبيعة من امنياته الغالية ولكن هذه الأمنية لم تتحقق فقد لحق عمر بالرفيق الأعلى قبل أن تمكنه الظروف من القيام بهذه الرحلة .

ولكن عمر كان قد ابتكر أسلوبا فريدا ليعوضه عن الذهاب بنفسه الى كل الأقطار الاسلامية فقد استغل عمر موسم الحج أفضل وأروع استغلال للالتقاء بأكبر عدد ممكن من المسلمين فى البقاع المقدسة . والحج كما هو معروف أحد أركان الاسلام الخمسة ، وفريضة تهفو اليها قلوب المسلمين جميعا خصوصا فى عهد عمر حيث كان ايمان الناس صافيا لم تشبه شائبة قويا راسخا كالجبال ، وحماستهم الدينية فى عنفوانها وكان أكبر عدد من المسلمين يحرص على أن يؤدى فريضة الحج مهما كلفه ذلك من متاعب ومشقات ليجيبوا داعى الله ويذكروا اسمه هناك عند بيته العتيق على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ويشهدوا منافع لهم وليرجعوا من هناك مغفورة ذنوبهم طاهرة قلوبهم صافية نفوسهم . كان هذا حال

المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب وقد أدرك عمر نفسه هذا ورأى أنها فرصة طيبة ونادرة حققها له موسم الحج فهو لا يستطيع أن يجمع هذا العدد الهائل من المسلمين فى مكان واحد حتى ولو أراد ذلك اما والمسلمون قد جاءوا من كل فج عميق ومن أقصى البلاد الاسلامية الى أقصاها ، جاءوا الى مكة حيث يؤدون فريضة الحج ويجتمعون هناك فى مكان واحد ، اذن هى فرصة نادرة لم يكن عمر ليضيعها وهو الحريص على الالتقاء بالمسلمين ومعرفة أحوالهم ، لذلك حرص عمر على أن يؤدى فريضة الحج كل عام طوال عهده الذى يجاوز العشرة أعوام . ويلتقى هناك بالمسلمين . فاذا كانت أمنيته فى الذهاب الى كل المسلمين فى كل الأقطار الاسلامية لم تتحقق ، فهاهم المسلمون قد جاءوا اليه بأنفسهم وكان لعمر هدف محدد من لقاء المسلمين وهو الوقوف على أحوال الرعية ومشاكلها ومتاعبها ، وسماع آراء الناس فى العمال والموظفين وكان عمر يطلب من الولاة وكبار الموظفين أن يوافوه فى مكة فى موسم الحج ، أى أن يذهبوا الى هناك ليلتقى بهم . وكان يرسل لهم كتابا دوريا بهذا المعنى .

وقبل أن يصل الولاة والعمال والموظفون الى مكة كانت تقارير رجال المراقبة والمتابعة تصل الى عمر وفيها شرح واف وأمين لكل تصرفات العمال والموظفين وسلوكهم وفيها تسجيل الأخطاء وكل الحسنات والسيئات . وكان عمر يناقشهم مناقشة من كان حاضرا معهم كأنه كان يرى ويسمع بنفسه كل شىء ولم يعرف العالم فى تاريخه الطويل حتى الآن حاكما تصرف بمثل هذا الأسلوب ، ولم يعرف تاريخ العالم مؤتمرا جامعا مثل اجتماع المسلمين فى موسم الحج على هذا النطاق الواسع ، ذلك المؤتمر الذى يقول عنه الأستاذ المرحوم عباس العقاد فى عبقرية عمر : (وجعل عمر موسم الحج موسما للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة

من أقصاها الى أقصاها يفد اليه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولاياتهم ، ويفد اليه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ، ويفد اليهم الرقباء الذين كان يبعثهم فى أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال فهى جمعية عمومية كأولى ما تكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصور ، وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويسمع لهم ويسمعهم ، ويتوخى فى جميع ذلك تمحيص الرأى وابراء الذمة) .

وهكذا على هذا النحو وعندما كان يلتئم هذا الجمع الحاشد من المسلمين عند بيت الله المحرم ، أشرف وأقدس بقعة على ظهر الأرض ، حيث الذكريات العطرة ، وحيث كان جبريل ينزل بالوحى على أشرف الخلق محمد عليه الصلاة والسلام . عندئذ يلتقى الحاكم الأعلى للمسلمين بالمحكومين وجها لوجه ، ما أروعه من لقاء فهو لقاء خالص لوجه الله تعالى ، فالحاكم والمحكومين على السواء ينشدون رضاء الله تعالى ووضع الأمور فى نصابها ومناقشة مشاكل المسلمين ووضع الحلول المناسبة لها ، فكل من يعرف قصة أو يدلى برأى أو يشير بشىء فانما يفعل كل ذلك فى أمانة ومراقبة لله مستشعرا عظمته وجلا له ، ومستشعرا عظمة اللقاء وقداسة المكان .

وبعد الاستعراض الشامل لأحوال المسلمين ولأمور الدولة الاسلامية وبعد الوقوف على تصرفات الولاة والعمال وسلوكهم مع محكوميهم ، بعدئذ يبدأ الحساب وتبدأ المساءلة بل والمحاكمة عما يكون قد حدث من أخطاء وتجاوزات . ولم يكن عمر يرغب فى الحساب والمحاكمة لمجرد الحساب والمحاكمة وانما يحاسب ويحاكم لهدف أسمى وهو وضع الناس حاكمين ومحكومين على الطريق المستقيم ، طريق الله وشريعة الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك كان

عمر يتحرى الصدق والحق في محاسباته ومحاكماته ما وسعه ذلك وعلى قدر طاقته البشرية ومنهــا من تثبت ضده تهمــة بدليل قاطع لابد أن ينال عقابه مهما كانت شخصيته ومكانته، كما أن المحسن المجد فى عمله كان ينال جزاءه من الاحســان وثناء الخليفة عليه وفى كلتا الحالتين أى فى حالة العقوبة وفى حالة المكافأة لم يكن هنــاك مجال للمجاملة ، والمحسوبية أو الوساطة فهذه الرذائل لم يكن يعرفهــا عمر ، ولم يكن يسمح بها فهى أدواء فتاكة كان يحرص على صيانة سمعة عمــاله وموظفيه وأبعادهم عن مواطن الشبهات . فلا عقــاب بدون جريمة عند عمر ، ولكل منهم حق الدفاع عن نفســه حتى تكون المحاكمة عادلة فعمر هو القاضى ذو الحس القــانونى المرهف وهو الذى وضع للقضاء القاعدة القانونية ــ البينــة على من ادعى واليمين على من أنكر ــ لذلك كانت محاكمــات عمر تجرى على وتيرة الحق والعدل والمساواة واستيفاء كامل لكل أركان القضية التى يحقق فيها . ومن المحاكمات الشهيرة التى حدثت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنــه ، محاكمة الصحابى الجليل أبى موسى الأشــعرى رضى الله عنه ، فقد اشتكى أحد المسلمين أبا موسى الأشعرى عند عمر بن الخطاب ونسب اليه تهما منها أنه اقتنى لنفسه ستين غلاما من أبنــاء الدهاقين ــ الدهاقون هم كبار حكام القوى من الفرس ــ وأن له جارية جميلة تدعى عقيلة غذاؤها جفنة وعشاؤها جفنة ــ يعنى تأكل أطيب وأشهى الطعام لأنها جارية الأمير ــ وأن له قفيزان وخاتمان ، وأنه أجاز الخطيئة الشاعر بألف درهم ، وأنه فوض الأمور الى زياد بن أبيــه يتصرف فيها دونه وهو الأمير . فاستدعى عمر أبا موسى للمحاكمة وواجه بالشــاكى وطلب منه أن يرد على التهم التى وجهت اليه وبدأ أبو موسى يرد على هذه التهم ويتفندها واحدة واحدة على الوجه الآتى :

بالنسبة للسبيين غلاما قال أبو موسى الأشعرى اننى علمت أن لهم فداء كبيرا فقد يتهم وأخذت الفدية وقسمتها بين المسلمين . وأما عن الفقيرين فقال ان أحدهما لأهلى وأولادى والآخر لعامة المسلمين يأخذون منه أرزاقهم .

وأما عن تفويض بعض الأمور لزياد فقد برره أبو موسى بأن لزياد عقلا ورأيا ونباهة وأنه أحسن التصرف فى الأمور وأنه أراد أن يستعين به .

وأما عن أجازته للحطيئة الشاعر بألف درهم فقال أن الحطيئة شاعر هجاء سليط اللسان فقد أجزته ببعض المال حتى أسد فمه وأعقل لسانه فلا يشتمنى .

أما بالنسبة للجارية فلم يستطع الوالى أن يقدم عذرا مقبولا أو يبرر اتخاذها .

سمع عمر حجج أبى موسى وتبريره لموقفه وتفنيده للتهم التى وجهت اليه ورأى أن بعض تبريراته مقبولة ولكنه لم يقبل تبريره لقضية الجارية كذلك لم يقتنع عمر بتفويض زياد وأراد أن يتحرى ذلك بنفسه فقال لأبى موسى عد الى عملك وأبعث الى بزياد وعقيلة . وعاد الوالى الى ولايته وأرسل الى الخليفة زياد وعقيلة الجارية فلما حضرا سأل الخليفة زيادا أسئلة عن علم الفرائض ـ أى علم المواريث ـ وعن القرآن والسنة فوجده ذكيا فقيها ، وثبت له حسن تصرفاته فأمره بأن يعود الى أبى موسى وكتب الى أمراء البصرة أن يأخذا برأيه ويستشيروه .

أما الجارية فقد استبقاها عمر فى المدينة ولم يتركها تعود الى أبى موسى واكتفى فى عقابه بهذا الحد . ولم يكتف عمر بذلك وانما واستدار الى الشاكى ليعرف سبب كيده لأبى موسى والصاق هذه التهم به فعرف أنه ـ أى الشاكى وكان اسمه العنزى ـ كان بينه وبين أبى موسى ثارة ، فقد

كان طلب من أبى موسى أن يكتبه فى الوفد القادم بالفيء على عمـــر ، لكن أبا موسى رفض ذلك ، فغضب الرجل من أبى موسى وأراد أن يكيد له عند عمر فدبر له هذه التهم ، ولكن الخليفـــة الحريص على ســـمعة ولاته وكرامتهم وابعـاد الشبهات عنهم قرر أن يبرر موقف أبى موسى تبريرا رسميا فأصدر بيانا قال فيـه (ان العنزى غضب على أبى موسى فى الحق أن حابه مراغما وفارقه أن فاته أمر من أمور الدنيـــا فصدق عليه وكذب فأفسد كذبه صدقه فاياكم والكذب فان الكذب يهدى الى النار) .

هذا هو أسلوب عمر فى المساءلة والمحاكمة ، فالمحاكمـة ليست للتشهير بكبار العمال والولاة وانما لاحقـــاق الحق وابطال الباطل . مع الحرص على كفـــالة حق الدفاع لكل انســـــان .

وكان عمر فى بعض الأحيـــان يقتنع بسلامة موقف بعض الولاة والعمال عندما تنسب اليهم بعض المخالفات ولكنه مع ذلك كان يحقق معهم ليوضح للرأى العام الاسلامى ســـلامة موقفهم حفاظا على سمعتهم .

ومن الأمثلة على ذلك التحقيق الذى أجراه مع سعد بن أبى وقاص ، وكان سعد بن أبى وقاص ـ كما أشرنا سابقا ـ من أكبر القواد المسلمين فهو فاتح العراق وبطل القادســـية وهو صحابى جليل من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وله قرابة قريبـــة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن كل ذلك لم يجعله فوق المحاسبة والمساءلة عند عمر الذى لم تكن تأخذه فى الحق لومة لائم .

وشاء حظ سعد أن يكون واليا على قوم هم أهل شقاق وفقاق ومســاوءة أخلاق وهم أهل الكوفة الذين كانوا يكيلون التهم لواليهم جزافا بالحق وبالباطل ، ولمجرد التشهير وهذه خليقة متأصلة فى نفوسهم ، فقد اتهموا سعد بن أبى وقاص

تهما فاحشته وصلت الى حد انهم قالوا عنه انه يقصر فى اداء الصلاة ، وانه لا يعد ليثيهم الى تهم اخرى حبكوها والصقوها بهذا الصحابى الجليل . وأمام هـذا السيل من التهم لم يكن لعمر بد من التحقيق مع سعد لمعرفة وجه الحق ، فأرسـل على الفور محمد بن مسلمة للتحقيق فى هذه القضية ، وكانت تعليمات عمر لمحمد بن مسلمة أن يجرى التحقيق علنا ليعرف الرأى العام الاسلامى الأمور على حقيقتهـا ، وحتى يكون فى التحقيقات والجماعات العلنية عظة وعبرة للمسلمين . وصل مبعوث الخليفة الى الكوفة وأخذ سعد يطوف به على المساجد وتجمعات الناس وأخذ يسألهم عن سعد وعن سيرته وحفاظه على الصلوات فى أوقاتها واقامة العدل بين رعيتـه ، وكلما سألهم عن أمر من الأمور يقولون لا نعلم عنه الا خيرا ولا نرضى بديلا . وأخيرا وصل محمد بن مسلمة ومعه سعد الى أحـد المساجد وقال للناس : انشد الله رجلا يعلم حقـا الا قاله ، فقام رجل يسمى أسامة بين قتادة وقال اللهم اذ نشدنا الله : (فانه ـ أى سـعد بن أبى وقاص ـ لا بقسم بالسوية ، ولا يعدل فى الرعية ، ولا يغزو فى السرية ، أمـام هذه المواقف المتصاربة لم يستطيع محمد بن مسلمة أن يستخلص لنفسه نتيجة تطمئن اليها نفسه فقرر أن يأخذ معـه سعد بن أبى وقاص ومن اتهمـوه ويحضرهم الى الخليفـة ليرى ويسمع بنفسه ويقرر ما يراه) .

وعندما وصل سعد بن أبى وقاص الى المدينة سأله عمر ابن الخطاب كيف تصلى يا سـعد ؟ فأخبره انه يؤدى الصلاة فى أوقاتها وعلى أفضل وجه ـ كما يليق بصحـابى جليل من أصحاب رسول الله فقال له عمر : هكذا الظن بك . وبعد ذلك أجرى عمـر التحقيق فى التهم التى نسبها بعض أهل الكوفة الى سعد ولكنه وجد أن التهم كلها كيـدية وغير صحيحة وتأكد عمر من براءة سعد وسلامة موقفه فرده الى عمـله .

لكن أهل الكوفة لم يكفوا عن اتهامه بالحق وبالباطل ، وهــذه كانت أخلاق أهل الكوفة مع أى والى يتولى أمورهم : فكلما ولى عليهم وال أكثروا عليه التهم وشفعوا عليه وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه . يعرف أهل الكوفة ويعرف خصالهم وأخلاقهم حق المعرفة ، حتى أنه ضاق بهم وبسوء أخلاقهم وروى عنه أنه قال : من يعذر من أهل الكوفة كلما وليت عليهم عاملا اتهموه وكفروه .

وأخيرا قرر عمر بن الخطاب عزل سعد بن أبى وقاص عن ولاية الكوفة مع علمه ببراءته وصلاحه ولكنهـا وشايات أهل الكوفة واتهاماتهم . ولكن عمر بن الخطاب لم ينسى وهو على فراش مرض الموت أن يرد لسعد اعتباره ويعلن للنــاس أن سعد كان موضع ثقة ولم تكتب عليه تهمة ــ تستوجب عزله ، وحرص ابن الخطاب على وصية من يتولى الخــــلافة بأن يستعين بسعد بن أبى وقاص : فقال (أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعد بن أبى وقاص ــ ان أخطائه الخلافة حيث كان سعد أحـد الرجال الســتة الذين رشحهم عمر للخلافة بعده ــ فانى لم أعزله عن عجز أو خيانة) ومن الطبيعى أن عمر لم يكن ليصبح الخليفـــة بعد بالاستعانة بسعد بن أبى وقاص لو كان يعلم أن به عيبا من العيوب أو أنه قصر فى أداء أو حاد عن منهج الاسلام .

وهذه هى فلسفة الادارة فى الاسلام ــ التى وضع أسسها رسول الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام وهى عزل العامل اذا كثرت ضده الشكاوى والاتهامات وذلك للأخـذ بالأحوط والبعد بالموظفين عن مواطن الشبهات ، فقد شكى وفد عبد القيس والبهم العلاء بن الحضرمى الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولما ســـمع النبى صلى الله عليـــه وسلم الى شكواهم وتحقق من صحتها عزل العلاء بن الحضرمى وولى عليهم ابان بن سعد وأوصاه خيرا بعبد القيس والاحســان

اليهم . وهكذا لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم او احد من الخلفاء يتردد فى عزل العامل او الموظف اذا حامت حوله شبيهة اووضع نفسه فى موضع من مواضع الريبة والشك وقد راينا فيما سبق من هذا البحث كيف أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان عزل احد الموظفين لأنه قبل هدية من أحد المواطنين ، لأن قبول الموظف العام للهدايا أمر يضعه فى موطن الشك والشبهة ، وهذا كان اسلوب النبى صلى الله عليه وسلم مع العمال والموظفين ، فلم يكن يقبل معهم أن يقبلوا الهدايا أثناء توليتهم للوظائف العامة .

وقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد عين موظفا لجمع الصدقات فلما رجع هذا العامل حاسبه النبى صلى الله عليه وسلم . فسلم للنبى بعض الأموال التى جاء بها واحتجز لنفسه بعضها فلما سأله النبى صلى الله عليه وسلم عن المال الذى استبقاه لنفسه قال هذا هديته أهديت الى ، وعندئذ غضب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : (ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله — فيقول هذا لكم وهذا أهدى الى) — أفلا قصد فى بيت أبيه وامه فنظر أيهدى اليه أم لا ؟ — وقال : (من استعملناه على عمل ورزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غل وخيانة) فهذا الأسلوب الادارى الذى أسسه النبى صلى الله عليه وسلم هو الأسلوب السليم للادارة الناجحة فالنبى صلى الله عليه وسلم يعلم تمام العلم أن كل التحلل والفساد الذى يمكن أن يتسرب الى الادارة يأتى من باب الرشوة التى تعتبر الهدايا مقدماتها فاذا قبل الموظف العام الهدية أثناء قيامه بوظيفته مرة فلن يتردد بعد ذلك فى أخذ الرشوة وعندئذ لا مانع لديه من الظلم وتضييع حقوق الناس واكل أموالهم بالباطل وهذا هو القرآن الكريم ينبه المسلمين الى خطورة الرشوة والتقرب بها الى الحكام وما يؤدى اليه ذلك من الفساد وأكل الأموال بالباطل

فيقول تعالى : (ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بهـا الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) سورة البقرة الآية ١٨٨ .

فالفكر الادارى الاسلامى كان يحرص أشد الحرص على أن يكون رجال الادارة على درجة عاليـــة من الأمانة والعفــة والبعد عن موضع الشبهات صيانة لمصالح الناس . ولم يكن هناك شخص فوق الحساب وأكبر من العقاب مهما كان مركزه وخطرة الكل امام شريعة الاســـلام سواء . وقد زخر الفكر الادارى الاسلامى بأمثلة وقصص المحاكمات التى تعرض لها رجال كبار وقادة أفذاذ لمجرد بعض الأخطـاء الصغيرة أو الهفوات لأن السكوت عن الأخطاء الصغيرة والهفوات يجر الى السكوت عن الكبـــائر والمخالفـــات الجسيمة ويؤدى الى الاستمراء . والتساهل والتقاضى وهذا يؤدى الى الفساد فى الادارة ولا يمكن أن يرضى الاســـلام عن الفســاد مهما كان مصــــدره .

ومن اشهر المحاكمات التى حدثت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب هى محاكمة القائد البطل سيف الله خالد بن الوليد ، فليس هناك مسلم على وجه الارض لا يعرف من هو خالد بن الوليد ، فهو القائد الذى ارتبط باسمه القضاء على المرتدين فى الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . فهو الذى ادب القبـائل العربيـة التى حاولت الخروج عن مبادىء الاسلام والامتناع عن دفع الزكاة وهو الذى قضى على حركات الانبياء الكذابين أو مدعى النبوه مثل مسيلمة الكذاب وطلحة الاسدى وغيرها وهو الذى ارتبط اسمه بالانتصار على جيوش الفرس والروم . بل هو الذى كان مجرد ذكر اسمه يثير الرعب فى قلوب الاعداء ولكن كل ذلك لم يشفع له عند عمر لارتكابه أعمالا لا يوافق عليها الخليفة ويراها منافية لاداب

الاسلام . ومن هذه الاشياء التى فعلها خالد ولم يرض عنها عمر أمور كان خالد فعلها فى حياة ابى بكر الصديق رضى الله عنه وكان عمر يغضب ويطلب من ابى بكر محاكمة خالد على هذه الاعمال مثل قتله لمالك بن نويره وزواجه من امراته ، وكذلك زواجـــه من بنت مجاعة فى حروب الردة وكان عمـــر يرى أن خالد ارتكب خطـــأ فاحشـــا بقتله مالك بن نويره ، وزواجه من امراته ، الامر الذى لم تأباه تعاليم الاسلام فقط بل ان الأخلاق العربية نفسها تأبىزواج القائد فى ميدان القتال ولكن ابا بكر كان يعتـــذر عن خالد ويقدر حاجتـــه وحاجة المسلمين اليه فى هذه المرحلة الدقيقة فى تاريخ الاسلام كله . وهى مرحلة الردة والاضطراب فى الجزيرة العربية الذى حدث بعد وفاة النبى – ص – ولم يقبل ابو بكر وجهة نظر عمر القائلة بضرورة محاكمة خالد بن الوليد على هذه الاخطاء وكان ابو بكر يكتفى بتعنيف خالد وتوجيه اللوم له خصوصا بعد زواجه من ابنة مجـــاعة فى منطقة اليمـــامة فى الوقت الذى استشهد فيه المئات من اصحاب رسول الله وقبل ان تجف دماؤهم فلما بلغ ابا بكر خبر زواج خالد من ابنة مجاعة ارسل له خطابا شديد اللهجة مليئا بالعبارات القاسية والعنيفة على هذا الصنيع الذى يجافى روح الاسلام وآدابه والاخلاق العربية كل هذه الامور التى اخذها عمر على خالد بن الوليد أثنـــاء خلافة ابى بكر كانت فى ذهنه عمر عندما توفى أبو بكر وأصبح عمر خليفة وفى يده سلطة اصدار القرارات لذلك كان من أوائل القرارات التى أصدرها عمـــر بعد أن تولى الخلافة هو قرار محاكمة خالد ابن الوليـــد وعزله عن القيادة العـــامة خصوصا ان خالد اضاف الى الاشياء السابقة امورا لم يكن عمر ليقرها أو يقبلها وبصفة خاصـــة تصرف خالد فى الاموال العـــامة ومن ذلك أن عمر ســـمع أن خالد بن الوليد أعطى الاشعث بن قيس عشرة الاف درهم كهـــدية ، وهنا ثارت

ثائرة عمر الذى كان شـديدالحساسية فيما يتعلق بالاموال العامة ، وكان يعتبـر نفسه مسئولا مسئولية مباشرة عن هذه الاموال وواجبه كحاكم أعلى للمسلمين المحافظة على هـذه الاموال واعطاء كل ذى حق حقه من المسلمين فيها . فلما بلغه صنيع خالد هذا واجازته للاشعث بن قيس بهذا القدر الهائل من المال قرر محاكمته على هذا التصرف للحرس على مبادىء الاسلام واموال المسلمين عند عمر كان يفوق حرصه على أى فرد حتى لو كان هذا الفرد من ابرز القواد المسلمين الذين دوخوا الاعداء وحملـوا راية الاسـلام عالية خفاقة وجرت محاكمة خالد بن الوليد على النحو التالى : ارسل عمر بن الخطاب بلال الحبشى مؤذن الرسول ـ ص ـ من المدينة الى الشام الى ابى عبيدة بن الجراح وحمل عمر بلالا رسالة الى أبى عبيدة يطلب منه فيها أن يستدعى خالد بن الوليد الى محاكمة علنية أمام المسلمين وكانت أوامر عمر فيما يتعلق بمحاكمة خالد صريحة وقاسية فى نفس الوقت . فقد أمر عمر أبا عبيدة ان ينزع قلنسوة خالد وان يعقله بعمامته ثم يسأله عن الاموال التى اعطاها للاشعث بن قيس . أهى من ماله الخاص أم من مال المسلمين ؟ فان أقر أنها من أموال المسلمين فقد أقر بخيانته ، وان أقر انها من ماله الخاص فقد اعترف باسرافه وفى كلتاالحالتين لابد أن يقاسمه ابو عبيده أمواله وان يعزله عن تولية أى عمل من اعمال المسلمين . كانت تعليمات عمر الى عبيدة بهذا الحسم والصرامة ولذلك تحرج أبو عبيدة من تنفيذ هذه التعليمات ولكن لم يكن فى وسعه أن يخالف أوامر الخليفة . فخالد قائد ممتاز وامجاده وانتصاراته يعرفها كل مسلم ومحاكمة بهذا الاسلوب فيها حط من مركزه وتجريح لشخصيته . اذن ماذا يصنع ابو عبيدة وكيف يتصرف فى هذه المشكلة الصعبة بعد تفكير طويل قرر أبو عبيدة ان يدع

بلالا يتولى محاكمةخالد بن الوليد على الطريقة التى أمر بهـا أمير المؤمنين فاستدعى خالد بن الوليد على ملاء من المسلمين وتقدم منه بلال وقال له : ان امير المؤمنين امر أن تنزع منك قلنسوتك وان تعقل بعمامتك حتى تجيب عنما تسأل عنه الآن وهنا علت الدهشة وجه خالد وعقلت لسانه عن الكلام فآخر شيء كان يفكر فيه أن يحاكم بهذا الأسلوب الشديد ،وأن يكون الذى يتولى محكمته هو بلال ابن رباح الحبشى مؤذن الرسول ــ ص ــ ولم يستطيع خالد أن ينطق بكلمة واحدة من الدهشة والاستغراب . فتقدم ، بلال منه ونزع منه قلنسوته وجمع يديه وراء ظهره وعقله بعمامته وسأله عن الاموال التى اعطاها الأشعث بن قيس أهى من ماله أم من مال المسلمين وعنـدئذ قال خالد بل هى من مالى الخـاص ، فارتفعت أصـوات الحاضرين ــ الذين كانوا يكبرون خالد ويحبونه حبا شديدا ويعجبون ببطولتـه وانتصـاراته ايما اعجـاب ــ تعبر عن سرورهم ببراءة قائدهم العظيم ، وبعـد ذلك قام بلال وأطلق يدى خالد والبسه قلنسوته فى ادب بالغ وقال نسمع ونطيع لامير المؤمنين ، ونعظم ونخدم موالينا هذه قصة فى الحقيقة مؤثرة للغاية ، ولكنها عظيمة الاهمية والدلالة فهى تظهر لنا بطريقة عملية عمق المبادىء الاسلامية وتأصلها فى قلوب المسلمين، وتظهر لنا ايمان هؤلاء الرجال بدينهم ومبادئه ووضع الدين ومبادئه فوق أى اعتبار آخر وتظهر لنا هذه القصة خالد بن الوليد القائد البطل فى اخلاق المسلم الحق الذى يطيع أوامر أمير المؤمنين دون مناقشة لا عن ضعف ولكن عن يقين بأن أمير المؤمنين انما يصنع هـذا من أجل المصلحة العامة . وباروعته المشهد فبلال العبد الحبشى يتولى محاكمة سيف الله المسلول خالد بهذا الشكل وخالد يذعن بهـذه الطريقة لتعليمات الخليفة الذى لم تكن تأخذه فى الحق لومة لائم ، هذه هى اخلاق المسلمين وهذا هو سـلوكهم الادارى

وحرصهم على المصلحة العامة ، حيث لم يكن هناك شخص فوق الحساب ، وانتهت محاكمة خالد بن الوليد بعزله نهائيا ومقاسمته أمواله حتى يقال ان ابا عبيدة قاسم خالد فى حذائه فترك له فردة حذاء واخذ الاخرى . فهل نعجب بعد ذلك اذا عرفنا أن هؤلاء الرجال بقوة مبادىء الاسـلام استطاعوا ان يفتحوا الدنيا وان ينشروا فيها العدل والرحمة والمسـاواة والتسامح وان يحققوا فيها الاستقرر والامن والسلام .

ومما يتصل بفلسفة عمر واسلوبه فى ادارة أمور الدولة الاسلامية أنه يعتبر نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وشخصية عن كل كبيرة وصغيرة من امور المسلمين وعن كل فرد منهم مهما بعد أو قرب عنه . فمع اجتهاد عمر الشديد فى اختيار العمال والموظفين وبعد استطلاع اراء ذوى الفضل والصلاح والقوى من المسلمين عمن يوليهم امور المسلمين مع هذا كله كان عمر يعتبر نفسـه مقصرا لو اكتفى بهذا الاجتهـاد فى الاختيار ، بل كان يرى أن مراقبة العمال ومتابعة سـلوكهم وتصرفاتهم من أهم واجباته بل من صميم وظائفه كخليفـة للمسلمين فقد يكون الانسان حسن السمعة مشهورا بالصلاح والتقوى بين الناس قبل أن يلى عملا من أعمال الدولة ولكن بعد أن يصبح موظفا عاما ومباشر عمله فقد يتغير وقد يغريه المنصب ويولد فى نفسه الشـعور بالعظمة والكبرياء ، وقد يتعالى على الناس أو قد يحاول اسـتغلال سلطته ونفوذه ويثرى على حسـاب الناس . وهنا يظهر لنا وجه الادارة الرشيدة التى كان عمر يدير بها شئون المسلمين : فكما كان عمر يؤمن اشد الايمان بمبدأ سياسة الباب المفتـوح أمام الرعية ، وكما كان لا يطيق من أى عامل أو موظف من عماله وموظفيه ان يغلق بابه دون الناس وان يحتجب عنهم ومن كان يفعل ذلك كان يتعرض لاقسى أنواع الحساب والعقاب من

عمر — وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من هذا كله — فكذلك كان عمر بن الخطاب شديد الحساسية فيما يتعلق بالاموال العامة وكان عمر بفطرته وحسه الدينى المرهف وخبرته الطويلة يدرك تمام الادراك انه لا شيء يساعد على الاستقلال بل ويغرى به سوى المنصب ، لذلك كان عمر بالمرصاد لعماله وموظفيه فيما يتعلق بالتصرف فى المال العام .

وكانت فاسفة عمر فى التصرف فى أموال المسلمين تتلخص فى قوله : (ما مثلى ومثل المسلمين الا كقوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم وقالوا لم انفق علينا فهل له أن يستأثر لنفسه بشيء فهى قالوا : لا يأمير المؤمنين : قال كذلك مثلى ومثلكم) وكان عمر يقول : أنا من أموال المسلمين ككامل اليتيم ان افتقرت أكلت بالمعروف وان استغنيت استعففت . وهذا هو معنى قوله تعالى عن كافلى الايتام ، أى الذين يقومون يحفظ أموالهم ورعايتها : (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) هذا هو أسلوب عمر فى التصرف فى أموال المسلمين وهو الاسلوب الذى شرعه الاسلام ، والزم المسلمين باتباعه وتطبيقه .

هذا هو احساس رجل الدولة الاول تجاه أموال الشعب فهو أمين الأمة على أموالها وكل شئونها وحق على الأمين أن يؤدى الامانة التى أئتمنه الله تعالى عليها ، ولم يكن ولاة عمر وموظفيه على الاقاليم يتعرضون لمساءلته وعقابه فى شيء قدر ما كانوا يتعرضون لذلك فيما يتعلق بالتصرف فى أموال المسلمين . وقد رأينا قبل قليل كيف تعرض قائد من اعظم قواد المسلمين على الاطلاق وهو خالد بن الوليد الذى طهر جزيرة العرب من المرتدين وادعياء النبوة ، واعاد لها الامن — والنظام والذى قهر الفرس والروم ، رأينا كيف تعرض هذا القائد المغوار لحساب عمر ومحاكمته القاسية لانه تصرف

فى الاموال تصرفا لا يرضاه عمر ولا يقره الاسلام ، وعندئذ قرر عمر ان يحافظ على مبادىء الاسلام وان يضعها فوق الاشخاص مهما كانت مراكزهم .

هو أسلوب عمر بن الخطاب وهذه هى فلسفته فى محاسبة جميع الولاة والعمال الذين كانوا يعملون معه ، فأيما واحد منهم أثرى على حساب الشعب أو ظهرت له ثروة لم يكن يملكها قبل أن يتولى عملا من أعمال الدولة ، اذن فهذا الثراء الطارىء جاء نتيجة لاستغلال النفوذ والسلطة ، ولم يكن عمر يقوى الحساب والمحاكمة لمجرد الحساب والمحاكمة وانما كان يهدف الى هدف أسمى من مجرد الحساب والمحاكمة وهو وضع العمال والموظفين على الطريق السليم وتعويدهم على الطهارة والعفة حتى يكونوا فى خدمة الناس فى امانة وحسن اداء لانهم تجردوا من المنافع الشخصية . وقد بلغت دقة عمر فى محاسبة الولاة والعمال على الثراء الطارىء وجمع الأموال انه كان عندما يعقد لعامل من العمال على ولاية عمل من الاعمال فانه كان يقوم باحصاء أموال هذا العامل قبل أن يلى العمل ثم يتبع سير هذا العامل عن طريق رجال المراقبة والمتابعة فاذا ظهر على هذا العامل أى مظهر يدل على ثراء طارىء فانه كان يخضع للحساب والمحاكمة والمقاسمة ، وذلك بأن عمر كان لديه تقدير عن ثروة هذا العامل قبل أن يلى العمل . بحيث كان يستعيد هذا القدر الذى كان يملكه الرجل قبل الولاية وتجرى المحاسبة فى الجزء الزائد .

ولم يكن عمر ظالما فى محاسبته وانما كان عادلا رحيما كعادته دائما ، فقد كان يسأل أهل الخبرة فى استثمار الاموال عن الجزء الذى كان يملكه العامل قبل أن يلى العمل وعن القدر الذى يمكن ان يصل اليه هذا الجزء لو استثمر استثمارا مشروعا بعيد عن استغلال النفوذ والسلطان وعندما يخبروه

بالقدر الذى يمكن أن يصل اليه فانه كان يعطى العامل أصل رأس المال والقدر الذى يربحه ربحا حلالا مشروعا ويأخذ الزائد ويصادره الى بيت مال المسلمين ، عملية حسابية تقوم على العلم والتقنين السليم دون ظلم أو جور على أحد وانما لصالح المسلمين جميعا حاكمين ومحكومين . وهذه هى السياسة التى التزمها عمر — وهى السياسة التى يقرها ويباركها الاسلام — فيما يتصل بأموال الشعب ، وهى سياسة تقوم على محاسبة الجميع حسابا دقيقا أمينا بلا تحيز أو محسوبية وتقاسمه من يظهر أنه جمع ثروة بالطريق غير المشروع وقد خضع لمحاسبة عمر ومحاكمته ومقاسمته أموالهم رجال كبار وقادة عظام أمثال سعد بن أبى وقاس وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وهم من لهم بطولة ودهاء وحكمة ، ولكن لا شىء عند عمر يشفع للمخطىء أو يدفع عنه الحساب والمحاكمة ، فمصلحة الدولة والامة عنده وأولى من محاباة الرجال ومبادىء الاسلام أبقى عنده من كل انسان كائنا من كان .

ومن الاحتياطات التى كان يتخذها عمر حفاظا على سمعة العمال والموظفين ، وفى نفس الوقت اعطاء المسلمين الفرصة لكى يراقبوا وينظروا بأنفسهم احوال عمالهم من تلك الاحتياطات ان عمر كان يأمر الولاة والعمال الذين كانوا يفدون عليه المدنية لأى أمر من الأمور أن يدخلوا المدينة نهارا حتى يراهم الناس ويروا الهيئة التى يدخلون عليها وما يكون معهم من أموال وأمتعة وهذا اسلوب آخر فى مراقبة العمال ولم يكن أحد منهم يجرؤ على أن يخالف أوامر وتعليمات عمر ، وكان عمر يطبق هذا الاسلوب لا مع الولاة والعمال فقط وانما مع اهلهم وأقربائهم عندما يقومون بزيارتهم ويعدون الى المدينة ، ومن أطرف ما يروى فى هذا المجال ان أبا سفيان بن حرب ذهب

لزيارة أبنه معاوية فى الشام ومكث عنده مدة ثم عاد الى المدينة وبعد عودته ذهب ليسلم على أمير المؤمنين عمر بن الخطـاب وبعد أن سلم وجلس سأله عمر عن أحوال ابنه معاوية فى ولايته فاجابه بخير ثم سأل عمر ابا سفيان عن الاشياء التى اهداها معاوية لابيه فأنكر ابو سفيان أن يكون قد أحضر شيئا معه ، ولكن عمر الخبير بنفسيات الرجال يعلم تمام العلم حرص ابى سفيان على الاموال وان معاوية لم يكن يدع هذه الفرصـة تفلت من يده دون أن يهدى الى والده بعض الهـدايا وهنا يتجلى ذكاء عمر فنزع خاتما كان فى يد أبى سفيان ثم أعطـاه لغلام من غلمانه وقال له اذهب الى بيت ابى سفيان واعطى هذا الخاتم لهند زوجه وقل لها ان ابا سفيان يأمرك تحضرى كل الاشياء التى احضرها من عند معاوية بالشام . كل هذا وعمر يمسك ابا سفيان عنده ، وفعلا اعطت هنـد زوج ابى سفيان للغلام كل الحقائب والامتعة المحملة بالهدايا وذهب بها الى عمر ووضعها بين يديه وهنا نظر عمر الى ابى سفيان نظرة لها دلالتها ومعناها وأمر بمصادرة جميع هذه الاشياء لحساب بيت المال وارسل الى معاوية يعنفه أشد التعنيف على هذا التصرف .

ومن الاساليب العمرية الفذة التى طبقها عمـر والتى لا تستطيع ان تطبقها الدول العصرية فى الوقت الحاضر أنه كان يمنع الولاة والعمال من الاشتغال بالتجارة أثناء توليتهم الاعمال خوفا من أن يسـتغلوا نفوذهم ويجاملهم الناس فى المعاملات التجـارية لحسبهم ومنصبهم ، وكان عمر شـديد الحساسية تجاه اشتغال أولاده بالتجارة مع أنهم لم يلوا له عملا ولم يكونوا من الموظفين فى الدولة ، ولكنه كان يعرف ضعف النفس البشرية أمام اغراء المال ، وكان يخشى أن بعض الناس قد يجامل أولاد أمير المؤمنين ويسهل لهم عقد الصفقات التجارية المربحة لانهم اولاد الخليفة وهذا يجرهم الى الثراء

الحرام وهذا هو الذى يخافه عمر شد الخوف لانه كان يسمع النبى ـ ص ـ يقول : (كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به) وكان يريد لأولاده ان يكونوا بنجوة من النار .

ومن الأمثلة الرائعة التى تدل على هذا السلوك الاسلامى الرفيع تلك القصة التى يرويها عبد الله بن عمر ـ الذى كان صورة من أبيه فى التقوى والصلاح ويقظة الضمير ـ فقد قال عبد الله بن عمر لقد شهدت جلولاء ـ موقعة حربية كانت فى فارس ـ فابتعت من الغنـائم باربعين الف درهم يعنى ان عبد الله اشترى من الغنائم للتجارة بهذا المبلغ ـ وقدمت على عمر فلما علم بذلك قال : يا عبد الله بن عمر لو انطلق بى الى النـار كنت لى مفتـدى ؟ قلت نعم بكل شىء املك يا أمير المؤمنين .

قال عمر كأنى بك تبايع بجلولاء والناس يقولون هـذا عبد الله بن عمر صاحب الرسول وابن امير المؤمنين واكرم أهله عليه ، وأن يرخصوا عليك كذا وكذا درهما أحب اليهم من ان يقلوا عليك بدرهم وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش ثم جاء عمر الى بيت أبنه ونادى زوجه صفية بنت أبى عبيد واقسم عليها الا تخرج شيئا من الأمتعة التى جاء بها زوجها عبد الله ثم ترك هذه الأمتعة أسبوعا ، ثم استدعى التجار فى المدينة فأشتروها باربعمائة الف درهم فأعطى عمر لعبد الله ثمانين الفا وارسل ثلثمائة الفا الى سعد بن أبى وقاص قائد المعركة وامره أن يقسمها بين من شـهد الموقعـة من المسلمين ، فاذا كان احدهم قد مات فليعط نصيبه الى ورثته ومثال آخر يتعلق باولاد عمر بن الخطاب انفسهم ويوضح أمانة الرجل ويقظة ضميره وحرصه على الصالح العام وضربه المثل العالى للمسلمين فى الفقه والزهد فى الحياة .

فقد خرج عبد الله بن عمر وأخوه عبيــد الله مجاهدين فى جيش العراق ، واثناءعودتهما الى المدينة مرا على ابى موسى الاشعرى والى البصرة من قبل أبيهم عمر ، فرحب بهما ابو موسى وأراد أن يجاملهما لأنهما ابنى أمير المؤمنين ، فقال لهما هاهنا مال من مال الله أريد أن أبعث به الى أمير المؤمنــين ، وسأسلفكم هذا المال فتبتاعان به من متاع العراق ثم تبيعانه فى المدينة فتؤديان رأس المــال الى أمير المؤمنين ، ويكون لكما الربح فقبلا وفعــلا ، كتب أبو موسى الى عمر ليأخـد منهـا رأس المال ، فلما قدما المدينة وأخبرا أبيهما بالقصــة كلهـا قال لهما : أكل الجيش أسلف كما اسلفكما ؟ قالا : لا . قال عمر اذن أديا المال وربحه الى بيت المال ، أما عبد الله فسكت ولكن عبيد الله أخذ يناقش أباه مناقشة موضوعية على أساس الفقه الاسلامى فقال لابيه ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين أن تأخذ المال كله وربحه ، أرأيت يا أمير المؤمنين لو أن المال هلك أكنت تطالبنا به ؟ قال عمر نعم : قال عبيد الله اذا كنا ضافين للمال اذا هلك فما ينبغى لك أن تحرمنا من الربح ، وهــذه حجة فقهية قوية لم يكن عمر يجهلها ولكنه كان شديد الحساسية جدا فيما يتعلق بالمال بصفة عامة أو فى اشتغال أولاده بالتجارة بصفة خاصة ، ولكن أمام هذه الحجة القوية والمنطق الواضح السليم قبل عمر أن يجعل المال فراضــا ـ اى شركة ـ بين أولاده وبين بيت المال فأخذ منهما رأس المال ونصف الربح وترك لهما نصف الربح مقابل الجهد الذى بذلاه فى البيــع والشراء ومقابل ضمان المال لو هلك .

وعمر رضى الله عنه كان يدرك بحسه وخبرته وشعوره الدينى أن اخطر باب يمكن أن يدخل منه الخلل والفساد هو باب التقرب الى الحكام وأهلهم واصدقائهم ومجاملتهم بالهدايا ليتغاضوا عن تصرفات بعض الموظفين التى قد تكون ضــارة بمصلحة الدولة والمجتمع ، لذلك كان عمر شديد الحساسية

فيما يتعلق بهذا الأمر أو بصفة خاصة بالنسبة لشخصيته وأولاده وسائر أهله وذوى قرباه ،وكان لا يقبل أبدا أن يتقرب اليه أو الى أحد من اسرته اى انسان بما يسمى هدايا أو خلافه ، سدا للابواب التى يتطرق منها الخلل والفساد الى الادارة ، لأن الحاكم اذا قبل هدية فقد يقبل رشوة بعد هذا وفى هذا ما فيه من الفساد والاضرار بمصالح الناس ، والاسلام ينهى عن ذلك أشد النهى ومما يروى عن عمر فى هذا المجال ان ابا موسى الأشعرى اهدى سجادة صلاة الى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجة عمر بن الخطاب ، فلما رآها عمر سأل عن مصدرها فأخبر أن الذى احضرها هو أبو موسى الأشعرى ، وعندئذ غضب عمر غضبا شديدا ، وأمر باحضار أبى موسى الأشعرى وعنفه تعنيفا شديدا ، وقال له (ما حملك على أن تهدى لنسائى خذها فلا حاجة لنا بها) .

وبلغت حساسية عمر فى هذا الشأن مبلغا عاليا ومثاليا ، فكان يتحرج أن يقبل أحد من اسرته أية هدية ولو كانت مظنة الشخصية فيها منفعة ولو كان من يقدمها لا يريد من وراء ذلك شيئا سوى المودة الخالصة ، ولكن ضمير عمر كان يتحرج أشد التحرج من قبول احد من اسرته لشىء من هذا القبيل فقد روت مصادر التاريخ الاسلامى فى أن أم كلثوم زوج عمر بن الخطاب وبنت على بن ابى طالب قد ارسلت مع سفارة اسلامية الى زوجة هرقل امبراطور الروم ، وكانت الهدية ــ كما تروى المصادر ــ عبارة عن كمية من العطور الشرقية ، فلما وصلت الهدية الى زوجة الأمبراطور فرحت بها جدا وجمعت صديقاتها من زوجات كبار رجال الدولة البيزنطية وقالت لهم اشيروا على فى هدية جاءتنى من زوجة أمير العرب وبنت نبيهم ، فأشرنا عليها بأن ترسل لها عقدا ثمينا من الأحجار الكريمة ، وفعلا ارسلت زوجة هرقل العقد مع السفارة الاسلامية الى أم كلثوم ، فلما وصلت السفارة

الاسلامية الى المدينة وتفقد عمر ما حملت السفارة معها ــ على عادته دائما فى التحرى عن امتعة رجاله القادمين من السفر ــ فلما وجد هذا العقد سأله عنه فأخبره بأنه هدية مرسلة من زوجة الأمبراطور هرقل الى زوجه أم كلثوم وعلى الفور نادى عمر فى الناس ــ الصلاة جامعة ــ وهذا كان اسلوب عمر عندما كان يريد أن يذيع بيانا خطيرا ، أو يحدث الناس فى أمر عظيم كان يجمعهم فى مسـجد الرسـول ليخطب فيهم ويحدثهم ويناقشهم ويناقشونه فى حرية مطلقة ــ فلما اجتمع الناس خطب فيهم عمر قائلا : (قولوا فى هدية ارسلتها أم كلثوم الى زوج هرقل فجاءتها منها هذه الهدية ــ واحضر لهم العقد ــ فقال بعض الحاضرين مولها بما أمدت هى الى زوج الامبراطور فقال عمر : ولكن البريد الذى حمل الهدية يريد المسلمين ، واقترح عمر أن تقوم هدية أم كلثوم التى ارسلتها الى زوجة هرقل وان تأخذ ثمنها فقط أما العقد الثمين فصادره لحساب بيت مال المسلمين انها حساسية شديدة من جانب عمر فيما يتعلق بأمور المسـلمين وخصوصا أمور المـال الذى يلعب بالرؤوس وتصعب مقاومته ، حساسية قل ان تجد لها نظير فى التاريخ .

هذه أمثلة ونماذج وصور من تصرفات النبى ــ ص ــ وخلفائه الراشدين فى مجال الادارة نقدمها للقارىء المسـلم ، بل لكل قارىء انسان ينشد الحقيقة والمعرفة الصحيحة ، ليعرف الجميع الى أى مدى كان التفكير الادارى الاسلامى يراعى المصلحة العامة ويحافظ على مصالح الرعية وأموالها بهذه الدقة البالغة ــ والعبرة ذات الدلالة فى ذلك كله ، أن التفكـير الادارى الاسـلامى لم يكن يكتفى بأن يوكل تطبيق المبادىء والشعارات لضمائر الناس وحدها ــ مع انها كانت ضمائر مؤمنه وحيه ويقظة وتغلب مراقبة الله دائمـا فى كل تصرفاتها ــ وانما كان وراء ذلك التطبيق الصارم الدقيق

المراقبة الدائمة والمتابعة المستمرة والعقاب الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم .

وأمر آخر لا يقل عن هذا كله أهميـــة وهو حرص التفكير الادارى الاسلامى على أن يكون كبار المسئولين ورجال الادارة قدوة صالحة ومثلا طيبا لمرؤسيهم قدوة فى سلوكهم العـــام والخاص ، ينأون بأنفسهم عن مواطن الشبهات حتى ينـــأى مرؤسهم عن مواطن الشبهات لأن الحاكم اذا عف عفت رعيته كما قال على بن أبى طالب لعمر بن الخطاب عندما جاءته أموال الغنائم ووجد فيها الجواهر الثمينة فبكى فقال له على مايبكيك يا أمير المؤمنين مع أن هذا موطن شكر لله فقال له ابكى عجبا من قوم يرون مثل هذا وتعف عنه نفوسهم فقال له على لقد عففت فعفت رعيتك يا أمير المؤمنين ــ صحيح ان الصلاح يعدى كما يعدى الفساد ، والقدوة الصالحة خير الف مرة من الخطب الجوفاء والكلام الرنان . افبعد ذلك تعجب اذا كان هؤلاء الناس البسطاء قد سادوا الدنيا وبسطوا فيها سلطان الله وشريعتـــه وملؤها عدلا ورحمـــة فى بضع عشرات من السنين وأقاموا نظاما استمر قرون عديدة بدفعه من روحهم ومثلهم وعدالتهم وبعد أما أن للمسلمين أن يرجعوا الى هـــذا التراث الادارى الاسلامى العظيم يستلهمون منه العظة والعبرة حتى يكون لهم فى يومهم وغدهم من مجـــد وعظمـــــة مثل ما كان لأجدادهم فى أمسهم وماضيهم البعيد .

نرجو ذلك وندعوا الله أن يوفق ولاة امور المسلمين للعمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

طبع بمطابع مؤسسة دار الشعب